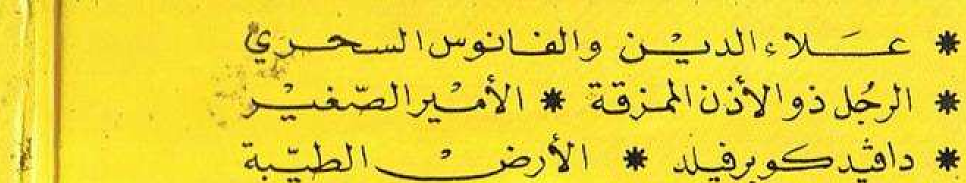


الرجل ذو الأذن الممزّقة

قصص عالمية



* علاء الدين والفانوس السحري
* الرجل ذو الأذن الممزقة
* الأمير الصغير
* دافيد كوبرفيلد
* الأرض الطيبة
* أوليفر تويست
* قصص من الشرق
* لورنا دون
* الغريب



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس - لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ - ٦٢١٢٨٩

من روائع القصص

صاحب الأذن الممزقة

تأليف

أبوت

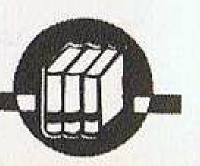
ترجمة الأستاذ بسيم بحليس

رئيس دائرة التربية في الشمال «سابقاً»

مراجعة الأستاذ إلياس عشّي

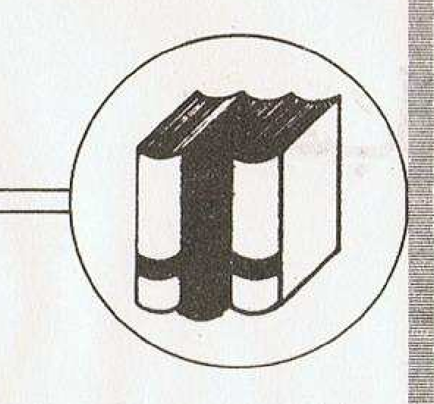
استاذ الادب في مدرسة طرابلس الانجيلية

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع



طرابلس - لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ - ٦٢١٢٨٢

دار الشمال
للطباعة والنشر والتوزيع



طرابلس لبنان
ص.ب ٥٧ - تلفون ٦٢١٩٥٢/٦٣١٢٨٢
تلكس Issam ٢٣٧٧٨LE

الطبعة الأولى
١٩٨٦

مقدمة

يَسْهُلُ فَهْمُ هذا الكتابِ على مَنْ يَعْرِفُ القليلَ عن تاريخِ فرنسا. فنابوليونُ الأوّلُ، امبراطورُ فرنسا بينَ ١٨٠٥ و١٨١٤ كان في حالةِ حَرْبٍ دائمةٍ مع انكلترا. ولِيَتَمَكَّنَ من الانتصارِ عليها حظَّرَ في سَنةِ ١٨٠٧ على جميعِ الدولِ الأوروبيّةِ الاتجارَ معها.

وقد تغلّبَ على جميعِ ملوكِ أوروبَة واحتلَّ موسكو، عاصمةَ روسيا، في السَّنةِ ١٨١٢ وبَقِيَ فيها زمناً طويلاً. ولكنّه صادفَ شتاءً قارساً قضى على القسمِ الأكبرِ من جيشِهِ، لاقَتِ الفرقُ الباقيةُ منه صعوباتٍ كبيرةً في اجتيازِ نهرِ البرازينا.

وكانَ الجيشُ الذي اعادَ تكوينَه في السَّنَةِ ١٨١٣ يفتقرُ للجيادِ. وَمَعْ أنَّهُ انتصرَ في معركةِ درسد

على عدّةِ جيوشٍ عدوّةٍ، إلا أنَّهُ لم يتمكَّنْ مِنَ اللحاقِ بها والقضاءِ عليها.

وكانَ القادةُ الروسُ والنمساويونَ والبروسيونَ على يقينٍ أن وجودَ نابوليونَ في ساحةِ المعركةِ يوازي مئةَ ألفِ جُنديٍّ. لذلك كانوا يَنسحبونَ عندما يكونُ على رأسِ جيشِهِ، وينتصرونَ على الجيوشِ الفرنسيةِ التي لا يقودُها بنفسِه.

تخلَّى عنه حلفاؤُهُ إبّانَ معركةِ ليبزغْ، وَغُلِبَ أخيراً في معركةِ واترلو سنة ١٨١٥ واصبحَ نظامُ الحكمِ في فرنسا مَلَكياً بين ١٨١٥ و١٨٤٨، وجُمْهوريّاً بين ١٨٤٨ و١٨٥٢ حينَ استلَمَ الحكمَ قريبٌ لنابوليونَ الأولِ باسم نابوليونَ الثالثِ وبَقِيَ حتى ١٨٧٠.

تخيّلَ المؤلفُ أن عقيداً فرنسياً يُدعى بيار فكتور فوغاس، جُفِّفَ سنة ١٨١٣، وأُعيد إلى الحياة سنة ١٨٥٩.

كانَ المؤلفُ أدمونُ أبوت (١٨٢٨ - ١٨٨٥) استاذاً وصحفياً معروفاً. وقد ألَّفَ كتباً بقيت مسليةً جداً بعد مرور مئةٍ وعشرينَ سنةً على تأليفِها. وهو يسخرُ في هذا الكتابِ من الناجينَ من الموتِ من جيشِ نابوليونَ الأولِ والذين أزعجوا الفرنسيينَ المسالمينَ بسردِ مغامراتِهم القَديمةِ، كما يفعلُ حالياً آباؤنا واجدادُنا عندما يتكلمون عن الحربِ العالميةِ الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

أشخاصُ القصةِ

السيدُ جان رينو: استاذٌ قديمٌ

السيدة رينو.

ليون رينو: ابنُهما

السيد أودري: الكاتبُ العَدْلُ

الطبيبُ مارتو: صديقُ العائلةِ

غوتون: الخادمةُ

الآنسةُ كليمانتين سامبوكو: خطيبةُ ليون

الآنسة فيرجيني سامبوكو: عمةُ كليمانتين

العقيدُ بيار فكتور فوغاس: عقيدٌ في الفوجِ الثالثِ والعشرينِ جُفّفَ سنة ١٨١٣

كليمانتين بيشون: حبيبةُ العقيد في نانسي سنة ١٨١٣.

لابلان: دوقُ سولفارينو وصديق فوغاس سنة ١٨١٢

العقيدُ رولون: عقيدٌ في الفوجِ الثالث والعشرين سنة ١٨٥٩

العقيدُ دي مارني: عقيدٌ في سلاحِ المدرّعات

الدكتور جان مايزر: عالمٌ ألماني

السيد نقولا مايزر: ابنُ اخِ هذا العالمِ

السيدة نقولا مايزر

الاستاذ هيرتز

الاستاذ كارل نيبور. . . الخ.

عودةُ ابنٍ .

في ١٨ أيـار سنة ١٨٦٩ حمـلَ جان رينـو، وهو أستاذٌ سابقٌ للعلومِ في كليةِ فونتا نبلو، الرسالةَ الآتيـة إلى مكتب البريد .

إلى السيد ليون رينو، مكتب البريد، برلين .

ولدي العزيزَ .

سُرِرْنا جداً أنا ووالدتُك لتلقي أخبارك الطيبةِ، خاصةً لجهةِ كسبِك مبالغَ كبيـرةً من المالِ ، أصبحتَ معها قادراً على الزواجِ .

تعـالَ بسُرعةٍ ولا تَعُدْ إلى روسيـا . ستساعـدُنا خطيبتُك كليمانتين في اقناعِك، فهي تنتـظرُكَ وشقتُكِ جاهزةٌ .

ستصلُ هذه الـرسالـةُ إلى برلـينَ قبل وصـولِك بيومين أو ثلاثةٍ . لقـد علمتَ، بالـطبعِ ، بوفاةِ السيد دي هامبولت؛ انها خسـارةٌ كبيرةٌ للعلمِ . كنـا نتبادلُ الرسائلَ أحياناً، وهذا يعني أنه كان يرغبُ في الإجابـةِ على إحدى رسائلي العديدةِ .

إنّـك تُسعـدني جـداً بشـرائِـكَ بعضَ مـا كـان يستعملُه .

أقبلكَ . نحن بانتظارِك .

جان رينو .

بعد مضي شهرٍ على هذه الرسالةِ، وصل ليـون إلى المحـطةِ . إنه شـابٌ لطيفٌ ويبـدو بصحةٍ جيـدةٍ . كان بالنسبةِ لوالدِه ووالدتِه جميلاً كاحدِ الآلهةِ . أمطراه بـالأسئلةِ التي كان يجيبُ عليهـا بقـدرِ مـا يستـطيـعُ . وعندما شاهدَهم الجيرانُ في العربـةِ قالـوا : «إنه رينـو الإبنُ الذي عملَ مـدة ثلاث سنـواتٍ في روسيا، ولمـا أصبحَ ثرياً عاد ليعيشَ مع والديه . »

- «اين كليمانتين». سأل ليونُ. فأجابتْهُ أمه: «ستراها هذا المساءَ» كان بابُ البيت مشرعاً والطاهيةُ البدينةُ غوتونُ تبكي وهي ترفعُ ذراعيها إلى السماءِ. إنها تعرفُ ليونَ منذ كان طفلاً يحبو.

عندما حلَّ وقتُ العشاءِ جلسوا إلى الطاولةِ، وصاحَ ليونُ وهو يُمْسِكُ المِلْعَقَةَ بيدِه: «إنه حساءٌ لذيذٌ، يا أمي؛ لمَ أتناولْ مثلَه منذُ ثلاثِ سنواتِ» سُرَّتِ السيدةُ رينو كثيراً بهذا المديح.

وبينما كانتِ القهوةُ تُقَدَّمُ قُرِعَ البابُ فتسارعَتْ دقاتُ قلبِ ليون. إنها الآنسةُ فيرجيني سامبوكو ومعها كليمانتين، ابنةُ أخيها.

كانت كليمانتين جميلةً جداً بقامتِها الطويلةِ وشعرِها الأشقرِ وعينيها السوداوين وأسنانها البيضاءِ الجميلةِ ويديها ورجليها الصغيرةِ. كانت نظراتُها ابتساماتٍ وحركاتُها مداعبات.

حقائبُ ليونَ

حوالي الساعةِ العاشرةِ مساءً استأذَنَتْ بالعودةِ إلى منزلِها ثم نهضَتْ وألْقَتِ التحيةَ وتقدَّمَتْ نحو البابِ. ونهضَتْ كليمانتين بدورِها فألقَتِ التحيةَ وتبعَتْ عَمّتَها بكلِّ تهذيبٍ.

عندئذ قال ليونُ: «انني عائدٌ من روسيا وعليكِ ألّا تَذهبي قبلَ مساعدتي على فتحِ حقائبي. إنها خدمةٌ أطلبُها منكِ أيتها الآنسةُ سومبوكو العزيزةُ.

- «يا لَلْغبطةِ، قالتْ كليمانتين، سنبقى».

فتحَ ليونُ الحقائبَ الواحدةَ بعدَ الأخرى، بينما كانت كليمانتين تجلسُ تجاهَهَ على الصندوقِ الكبيرِ وتنظرُ إليه بدافعِ المحبةِ اكثرَ منه بدافعِ المصلحةِ.

كانَتْ تفوحُ من الصَناديقِ رائحةُ الجلدِ الروسي والتبغِ الأشقرِ وماءِ الوردِ. أحضرَ ليونُ هدايا متنوعةً كما يفعلُ المسافرون الأغنياءُ الذين يتركون

وراءهم عائلتَهم والكثيرَ من الأصحاب: أقمشةً أسيويةً، غلايينَ فضيةً، علباً من الشاي، أسلحةً قديمةً واوانٍ فضّيةً.

تقبّلتْ كليمانتين بسرور كلَّ ما قدمه لها ليون. أليسَ موعدُ زواجهما بعدَ شهر؟ وقدّم للسيدِ رينو مبذلاً وكتباً قديمةً ابتاعَها من موسكو ولوحةً فرنسية جميلةً وجدَها صدفةً في أحدِ المخازن.

قال ليونُ لوالده: إنني لم أنسَكَ، وأنا أعلمُ جيداً أنك ترغبُ بالحصولِ على بعض ما كان يستعملُه همبولت. إلا أن الحكومةَ اشترتْ جميعَ كتبهِ ومخطوطاتِه. وتنفيذاً لرغبتكِ لم أتورّعْ عنِ السرقةِ فقد أُخبِرْتُ بأنّ هنالك مومياءَ معروضةً للبيع، كانت عندَه. فأسْرَعْتُ إلى التاجرِ واشتريتُها منه بدونِ مساومةٍ. وفي اليوم التالي علمْتُ من أحدِ اصدقاء همبولت، الاستاذِ هيرتز، بأنها لم تكن يوماً ملكَ هذا الرجلِ العظيمِ. أين وضعتِها غوتون؟ آهٍ. إنَّ

كليمانتين تجلسُ فوقَها!

همّت كليمانتين بالنهوضِ عن الصندوقِ ولكنَّ ليونَ منعها وهو يقولُ: لدينا الوقتُ الكافي لرؤيةِ هذه المومياء القديمةِ. واليكم قصّتَها كما رواها لي هيرتز، وهو على كلِّ حال، سيرسلُ إليَّ رسالةً بهذا الشأنِ. لا تذهبي يا آنستي العزيزةَ سومبوكو. إنها قصةٌ شيّقةٌ. وسيرويها لكمُ الطبيبُ مارتو والسيدُ اودري اللذان وافقا على تناولِ طعامِ العشاءِ معنا: الدكتور مايزرُ هو عالمٌ ألماني كبيرٌ توفي سنة ١٨٢٣...

- «حسناً»، صاحت الآنسة سامبوكو، «أمِنَ المسموحِ به أن تمنعَ الناس من الذهابِ للنومِ في مثلِ هذه الساعةِ لِتحدثهم عنِ الألمانِ والعلم»

أكمل ليونُ حديثَه متجاهلاً اعتراضَها: «انها قصةٌ فظيعةٌ يا آنستي وعليكِ أن تصغي إليها بانتباهٍ».

نهضت كليمانتين عن الصندوقِ فقدَّمَ لها خطيبها كُرسياً وجلسَ مكانَها.

تجربةُ العالمِ الأستاذ مايزر

- سيداتي، تابعَ ليون، إن الاستاذَ مايزر قتلَ العقيدَ الفرنسي الذي يرقدُ في الصندوقِ الذي أجلسُ عليه، حباً بالعلم. وكان ينبغي في الوقت نفسهِ إنقاذَ حياتِه، هذه الحياةِ القصيرة جداً، يا كليمانتين.

من منا أيتها الآنسةُ لم يفكرْ «كم يكونُ رائعاً أن يعودَ الانسانُ للحياةِ بعد مئتي سَنةٍ على موتِه»؟ فكلُّنا فضوليون ونَوَدُّ أن نعرفَ ماذا حلَّ بأحفادِ أحفادِنا بعدَ موتِنا، وفيما إذا كانت أشجارُ حديقتِنا قد كَبُرَتْ.

إذاً، كان الأستاذُ مايزرُ واحداً من أكثرِ رجالِ ألمانيا رزانةً، وكان مقتنعاً أن بإمكانِ العلمِ أن يُنوِّمَ كائناً حياً ثم يحييه ساعةَ يشاءُ.

صاحَ الطبيبُ مارتو: إن ذلك ممكنٌ، برأيي، بالنسبة لقطعةٍ من جلدِ الانسانِ، أو لأصبعٍ من

أصابعِ رجلهِ، ولكنْ ليسَ بالنسبةِ للإنسانِ ككلٍّ.

- أبداً، فالأستاذ كان يرى أن التجاربَ التي تبدأ على الجزء وليس على الكلِّ تؤدّي إلى تأخير العلم مئاتِ السنينَ. كان يريدُ إيقافَ كلِّ حياةٍ في الجَسدِ، والاحتفاظَ به عشراتِ بل مئاتِ السنينَ قبلَ أن يعيدَ إليه الحياةَ.

- «إنه مجنونٌ»، صاحت غوتون، التي كانت تصغي وهي واقفةٌ في البابِ قال ليون: ليسَ أكثرَ من إنسانٍ يشاهدُ ساعةً للمرةِ الأولى فيراها تسير ثم تتوقفُ، فيظنُ أنها ماتت ولكنها لا تلبثُ أن تعودَ للحركةِ من جديد. هذه الساعةُ نفسُها قد تبقى متوقفةً خمساً وعشرينَ سنةً، ثم بنقطةِ زيتٍ واحدةٍ تسيرُ من جديدٍ وكأنها لم تتوقفْ يوماً واحداً.

أنْ تَكْسِرَ رأسَ عقيدٍ أو ترتقَ قلبَه فذلك يؤدي حتماً إلى موتِه عاجلاً أو آجلاً. ولكن أن تسحبَ من جسدِه ستينَ ليتراً من المياه وتنيمَهُ دون أن تقتله

وتحفظَه مئةَ سنةٍ ثم تعيدَ إليه نقطَ ريتٍ، أي الستين ليتراً من المياهِ الضروريةِ لحياةِ كلِّ إنسانٍ، فهذا هو الممكنُ وهذا ما حاولَهُ الاستاذُ مايزر.

هناك حيواناتٌ تنامُ ستةَ أشهرٍ، وهذا شيءٌ أكيدٌ. كما أن بعضَ حباتِ القمحِ أنبتَتْ بعد أربعة آلافِ سنةٍ. وقد تحقّقَ ذلك في مصر. والدولابياتُ التي تعيشُ في رواسِبِ الأنهار تموتُ وتعود إليها الحياةُ جزئياً عشراً أو خمسَ عشرةَ مرَّةً. نُجَفِّفُ هذه الدولابياتِ تَموتُ، ثم نَبَلِّلُها بالماءِ فتعودُ إليها الحياةُ. كلُّ شيءٍ يتوقفُ على عنايتِنا بها عندما تكونُ مجففةً. وقد جفّفَ (نيدهام) عدداً منها في سنة ١٧٤٣ وأعطاها لـ (باكر) الذي أعادَ إليها الحياةَ في سنةِ ١٧٧١ أي بعد ثمانٍ وعشرين سنةً. وقد تكوّنَتْ خلالَ هذه المدةِ ثمانٍ وعشرون سلالةً من الدولابيّاتِ. ألا يكونُ الجدّ سعيداً لرؤيةِ سلالتِه الثامنة والعشرين؟

ستغمُر هذه السعادةُ جميعَ الناسِ من جميعِ الطبقاتِ. فالمرضى، مثلاً، يصبحُ بإمكانِهم إنتظارُ إكتشافِ علاجٍ لمرضِهم، والعشاقُ يعودُ إليهم شبابُهم وجمالُهم، والمجرمون يجدون مخزناً كبيراً مكانَ السجونِ، وأكياساً من الخضارِ الجافة بدلاً من المحكومين بالأعدامِ.

هذه هي الأسبابُ التي دفعَتْ الأستاذُ مايزر، في سنة ١٨١٣، لاجراءِ تجربتِه الرائدةِ على العقيدِ الفرنسي الذي حُكِمَ عليه بالموتِ رَمْياً بالرصاصِ.

ولكنَّ الأستاذَ مايزر، لسوءِ الحظَ، لم ينجحْ في تجربتِه، وقد اشتريت العقيدَ والصندوقَ الذي وُضِعَ فيه بثمنِ جوادٍ عجوزٍ من أحدِ مخازنِ برلينَ الذي كان سقفُه على وَشَكِ السقوطِ.

صبيةٌ هادئة

قـال السيدُ رينـو: عزيـزي ليون، إن الـدكتورَ مارتو الذي وافقَ بكل سرورٍ على تناولِ العشاءِ معنا، على معرفةٍ تامةٍ بأعمالِ الأستاذِ مايزر. افتح، إذاً، الصندوقَ الذي فيه العقيدُ. . .

- «وإذا اعتراكم الخوفُ؟»

- إعلم يا بنيَّ أنني لا أخافُ أحداً، حتى لو كان من الضباطِ الأحياءِ.

رفعَ ليونُ غطاءَ الصندوقِ المصنـوع مِن معدنِ الرصاص، فـاقتربَ منـه الجميعُ وبـأيديهم المصابيحُ وظهـر لهم عقيـدٌ من الفـوجِ الثالثِ والعشـرينَ في جيشِ نابوليونَ الأولِ وقد لُفَّ بكفنٍ شديد البيـاضِ وهـو أشبهُ مـا يكونُ بـرجلٍ نـائمٍ. إنه مـومياءُ جميلةٌ

كالمومياءِ المصرية وباستـطاعةِ أي واحـدٍ من أَصدقـائه أن يتعرفَ عليه فوراً. . فوجهُـهُ كجلدِ الشبابِ. فقـد كـان في الرابعـةِ والعشرينَ من عمـرِهِ عندمـا أُجْريت عليه هذه التجربةُ.

بَدَتْ سترتُهُ واسعةً وأظافرُه طويلةً. أشار ليـون إلى العقيدِ وضربَ باصبعهِ على ساقيـه وصدرِه فـرنّت بشرتُه كجلدٍ جافٍ. وبينما كـان يداعبُ شعـرَه، مَزَّقَ قطعةً من أذُنِه اليمنى فبقي في يده جزءٌ من العقيدِ.

لم يـلاحظِ الرجـالُ ما جـرى، لكن كليمانتين رَجَعَتْ إلى الـوراءِ وأطلقت صَيْحَـةً صغيـرةً وهـي تقولُ: «بدا لي وكأنَّ هذا الرجلَ فتح فَمَهُ وصـرخَ من شدَّةِ الألمِ».

أسرع ليونُ بإقفالِ الصندوقِ، وأخذ الـدكتور مارتو القطعةَ التي مُزِّقَتْ من الأذُنِ ووضَعها في جيبِـه، بينـما راحتْ كليمانتيـن تبكي دون أن يتمكنَ أحدُ من إسكاتِها.

عندئذٍ أخذَ ليونُ بنزعِ شعرِ رأسِه وهو يقـولُ: «إنني، حقـاً حيـوانٌ. فكيف أعـرضُ عـلى خـطيبتي مـومياءَ وأسبّبُ لهـا البكاءَ في أولّ يـوم التقيها بـه بعد غيابِ ثلاثِ سنواتٍ».

ثم رَكَلَ الصندوقَ برجلِه وهو يقول: «أريدُ أن تنقلوا هذه المومياءَ إلى المقبرةِ».

فاشتد بكـاءُ كليمانتـين وصرخت: «كـلا! لقد تألّمَ كثيراً! يا له من رجلٍ مسكينٍ».

دهشَ جميعُ أصدقائِها من تصـرّفها لأنها كـانت تمتازُ عادةً بهدوئها وسيطرتِها على أعصابها.

وعنـد الانصرافِ، نهضَتْ وفتحَتِ الصنـدوقَ وقبَّلَتِ العقيدَ وقالت: «مسكينٌ هذا الـرجلُ! كم هـو باردٌ! عِدْني يا سيد ليون بأن تـدفنَه كبـاقي الناسِ إذا كان ميتاً».

- كما تشائـين أيتها الانسـةُ نحن لا نرفضُ لـك طلباً.

ثم رافقَ خطيبتَه والآنسةَ سامبوكو حتى منزلِها.

وصادفوا في الطريق عقيداً في سلاحِ الخيّالـةِ، طويـلاً وقوياً. شدّت كليمانتـينُ على ذِراعِ ليـونَ وقالت: لا يصادفُني هذا الرجلُ مـرة إلا ويحدقُّ بِي دون أن يجـرُؤَ على التحدثِ معي. ألسْتَ من رأيي أن ضبـاطَ اليومِ هم أقلُ قدراً من ضباطِ سنة ١٨١٣؟

وافقَ ليونُ على كلِّ ما قالته. وعند عودتِه حَدَّثَهُ ذووه طـويـلاً عن كليمـانتـين ودلّـوه عـلى الشقـةِ التي أعدوها لـزواجهما القـريبِ. وبينما كـان يطفىء النـورَ قال في نفسِه: «إنها أجملُ مماكانت عليهِ يومَ رحيلي قبلَ ثلاثِ سنواتٍ. إنّ والدي ووالدتي على حقٍّ، فهيَ من أجمل فتياتِ فرنسا. ولكن يبدو لي أن المومياءَ القديمَـةَ أصبحت حاجزاً بيننا».

أحلام

رأى ليون في منامِه العقيدَ وهو يجابهُ الروسَ بسيفه. ولكنّ الوسامَ أعطي للآنسةِ سامبوكو التي بدت نحيفةً ودميمةً أكثر من أي وقتٍ مضى.

وعندما استيقظ من نومِه، قال في نفسِه بعدَ تقويمِه للأمورِ: لم يحصل لي سوى أشياءَ سارةٍ. فأنا بين أهلي ونحنُ جميعاً بصحة جيدةٍ ونملكُ من المالِ ما يكفينا، ويحبُّنا أصدقاؤنا وليس لنا أعداءٌ. كما أن أجملَ فتاةٍ في فونتين بلو، وربّما في باريسَ، قد قبلَتْ أن تصبحَ زوجتي وسنتزوجُ بعد ثلاثةِ أسابيعَ. صحيحٌ أنها بكَتْ بسببِ هذه المومياءِ. حسناً! سأدفنُ هذا العقيدَ ولن يكونَ هنالك ما يُعكّر صَفْوَ سعادتِنا!!

دخلَ إلى غرفةِ الطعامِ حيثُ يوجدُ الصندوقُ.

وكانت غوتون، التي تملّكها الخوفُ من المومياءِ، قد وَضَعَتْ على غطائِه صورةً للمسيح. فابتسمَ لكن ابتسامتَه امّحَتْ عندما لاحظَ أن كليمانتين قد نسيَتْ كلَّ ما قدَّمَ لها من هدايا. فذهب إلى العَمَّةِ وابنةِ أخيها.

قالت له كليمانتين: آملُ ألا تكونَ قد حقَدْتَ عليَّ لأنني نسيت الأشياءَ الجميلةَ التي أحضَرْتَها لي من روسيا، وأنا سعيدةٌ لأنك فكَّرْتَ بي كما كنت أفكرُ بك! هل تعلمُ أن يديَّ كانتا ترتجفانِ عندما دخلْتُ البارحةَ إلى منزلكم؟ فلنتحدَثْ الآن قليلاً عن العقيدِ المسكين الذي كان سببَ بكائي. كيف حالُهُ هذا الصباحَ؟ يجبُ أن أراه في وضحِ النهارِ.

- لماذا؟

- بالرغمِ مني، فلقدِ إسترعى انتباهي هذا الرجلُ العجوزُ.

- لماذا تقولين عنه أنه عجوزٌ. يبدو أنه تُوفي وهو

مـا بينَ الثـالثةِ والعشـرين أو السادسـة والعشرينَ من عمره.

ـ هل أنتَ متأكدٌ من موتِـهِ؟

ـ إنه السؤال نفسُهُ الذي اطرحُه على نفسي.

ـ لقد شاهدته في منامي هذه الليلة.

ـ أنتِ أيضاً؟

ـ أجـلْ. وقد طلبَ مني أن أدفنَـه وحملناه أنتَ وأنا إلى فونتين بلو، وافسَحَتْ له والدتي، وهي ترتدي ثوبَها الأبيضَ، مكاناً بقربها. وبَدَتْ وكأنها تنتظرُه! أما هو فكان يصرخُ بأن وَقْتَ ذهابِه إلى القبرِ لم يحن بَعْدُ، وكانت أذُنه تنزفُ وتمكّنَ أخيراً من الهربِ.

ـ آهٍ! يـا كليمانتـين: إنني أتحمـلُ مسؤوليـةَ مـا حدثَ، وفي هذا اليومِ بالذاتِ سأهتم بتـأمين مكـانٍ دائم لهذا العقيدِ.

لا تدفنْ العقيد

لم يسبق لكليمانتينَ أن تعرّفَتْ على جَـدّتِها التي تزوّجَتْ في نانسي في كانون الثاني سنة ١٨١٤ ومـاتَتْ بعد زواجِها بثلاثةِ أشهرٍ تاركةً بعدَهـا طفلةً، ولا على جَدِّها أو والدِها السيـد سامبـوك. لم يكنْ عنـدها مَنْ تحبُّه سوى أمِّها، وبعد موتِها، جارِها الشابِ ليون.

أحبّتـه منذُ طفـولتِهـا وبمعـرفـةِ عمّتِهـا الآنسـةِ سامبوكو، لذلـك ارتمتْ بين ذراعيـه عندمـا التقَتْ به بعد عودتِه من روسيا.

ولكنْ عندما شاهَدَتْ وجهَ العقيدِ، بعد ساعةٍ على هذا اللقاءِ، تولَّدَ عندها إحساسٌ ليس بـالحبِّ أو الخوفِ أو الصداقةِ، إنما هو اهتمام واحترامٌ وحنانٌ.

لم تكنْ تعلمُ شيئاً عن شجاعتِـه أو عَنْ حياتِـه.

فقد أخبرها باختصارٍ أن الروس كانوا سينفّذون به حكمَ الاعدام عِندما كانَ ينقلُ، في نهايةِ سنة ١٨١٣ أوامرَ نابوليون من ليبزغ إلى دانتنريغ بعد إجتيازِ عدةِ جيوش عدوةٍ.

كانت تأتي يومياً لمشاهدةِ المومياءِ وتطيلُ النظر إليها، كما رافقت ليونَ ليختارَ لها مكاناً في المقبرة.

وانتهت عائلةُ رينو أخيراً لاعتبار كل ذلك أمراً غريباً، وتقرَّرَ دفنُ هذا العقيدِ المزعجِ بسرعةٍ. وعندما أصبحَ كلُّ شيءٍ جاهزاً غيَّرَتْ كليمانتين رأيَها.

وسألَتْ: «بأي حق تدفنون رجلاً ربّما لم يكن ميتاً. فمايزر كان عالماً كبيراً والأستاذُ البرليني هيرتز وعَدَ بإرسالِ دراسةٍ مطوّلة عن حياة وموتِ هذا الضابطِ المسكين. قبلَ استلامِها» كتبَ لي

أما الدكتور مارتو فقد اعترف بأن كليمانتين

على حقٍّ وسألَ الجميعَ عما إذا كانَ الإنسانُ يستطيعُ العودةَ للحياةِ كالدولابيّاتِ. وكانَ كثيرَ الاهتمامِ برسالةٍ من الأستاذِ هيرتز عن رغباتِ الأستاذِ مايزر الأخيرة.

رغباتُ الأستاذِ مايزر الأخيرةُ

بما أنّي أشعرُ بدنوِّ أجلي في هذا اليومِ الواقعِ في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٣، لذلك قرَّرْتُ أن أتركَ كتبي وأوراقي إلى صديقي العالمِ الكبير همبولت.

أما بقيةُ ممتلكاتي البالغةُ قيمتُها مليوناً ونصفَ المليونِ من الفرنكاتِ، فإنّي أهبُها للعقيدِ بيار فكتور فوغاس الذي قمت بتجفيفِه والذي لا يزالُ حياً.

لقد التقيتُ به في الحادي عَشَرَ مِنْ تشرين الثاني سنة ١٨١٣، وكان نابوليونُ العظيمُ قد دَحَرَ مرةً أخرى أربعة جيوشٍ في لوتزن وبوتزن ودرسد. لكنَّ بعضَ الألمانِ الذين حاربوا إلى جانبِه في معركة ليبزغَ، انضموا إلى الروسِ والنمساويين فاضطر

للانسحابِ، وكلّفَ العقيدَ فوغاس إبلاغَ قوادِه، الذين ظلوا في دانتزغ وشمالي ألمانيا، أمراً بالانضمامِ إليه مع حوالَي مئتي ألفِ جُنديّ.

أوقفَ فوغاسُ بالقربِ من دانتزغ من قبلِ الروسِ وهم في حالةِ سكر. لذلك لم يفهموا شيئاً من كلامِه. فاستدعوني، ولكنّهم لم يفهموا حتى ما بيّنته لهم باللغةِ الروسية، وظنّوا أن فوغاس ليس عقيداً فأصدروا أمراً بإعدامِه رمياً بالرصاصِ في اليومِ التالي.

كان ليلُ ١١-١٢ تشرين الثاني من أكثرِ الليالي بَرداً خلالَ هذا الشتاءِ الفظيعِ بلغتِ الحرارةُ فيه ٢٥ درجةً مئويةً تحت الصفرِ. وعند ما خرجْتُ صباحاً لمعانقةِ العقيدِ للمرةِ الأخيرةِ، هذا الرجلِ الشجاعِ، المرحِ، والذي أثارَ إعجابي، قيل لي:

«لسنا بحاجة لإعدامِه، فلقد أصبحَ قطعةً من الجليد».

أسرَعْت إلى السجنِ فوجدت العقيدَ مستلقياً على ظهرِهِ وهو في سباتٍ غريب ولكنه لم يكن ميتاً. قد يكون من غيرِ الممكن إعادتُهُ للحياةِ فوراً، ولكنَّ تجفيفَه وإعادةَ الحَياةِ إليه فيما بعدُ، أمران ممكنان، وهذا أفضلُ له من تلقي اثنتي عشْرةَ رصاصةً روسيةً.

اشتريْتُ الجُثَّةَ ونقلتُها إلى مختبري ووضعْتُها بالقربِ من أجهزتي. وزنته فوجدْتُ أنه يزنُ، مع ثيابه، خمسةً وسبعين كيلوغراماً، ولم يكنْ في جسدِهِ عَشْرَةُ غراماتٍ من الشحمِ. بعد ذلك جففتُه ببطءٍ، وسأبينُ كيف حصلَ ذلك. بعد ثلاثةِ أيامٍ كان قد خسرَ قسماً من الماءِ الذي في جسدِه، عندما جاءَ القائدُ الأعلى للجيش الروسي وأخبَرني أن فوغاسَ ضابطٌ شجاعٌ لا يجوزُ قتلُه، وأنه يود أن يستقبلَه في منزلِه، أجبتُه بأن العقيدَ لم يجَفَّفْ تماماً وأن باستطاعتي إعادةَ الحياةِ إليه خلالَ ثمانيةِ أيامٍ. فخرَجَ وهو يُغلِقُ البابَ في وجهي وينعتني بالعجوزِ المجنونِ. استمرَّيْتُ في

عمليةِ التجفيف. وفي ٢٧ شباط، عندما فقدَ العقيدُ أربعةَ أخماسِ وزنهِ وأصبحَ لا يزنُ سوى عشرين كيلوغراماً، مددتُه في صندوقٍ كبيرٍ صُنِعَ لأجلِهِ وهو في منزلي منذ تسعِ سنواتٍ وأحدَ عشرَ شهراً.

ساعتني بك، يا صديقي العزيز، حتى آخِرِ لحظةٍ في حياتي. كان من واجبي أن أعيدَ الحياةَ إليكَ، ولكن كانت هناك بالمقابلِ مصلحةُ العلم. ومنذ خمسِ أو ستِّ سنواتٍ وأنا أشعرُ ببوطأةِ المرضِ. وسأموتُ من الهمِّ وتموتُ أنت معي في أثناءِ عودتِك للحياةِ.

«وإنني أتركُ أمرَ القيامِ بهذه المَهَمَّةِ لابنِ أخي نقولا مايزر، وهو تاجرٌ في دانتزغ، مَع عشرةٍ من أفضلِ أطباءِ هذه البلادِ. كما أنَّ إبنَ أخي سيُعطيك ممتلكاتي. أتيتَ فقيراً إلى دانزغ وقد أصبحْتَ غنياً فكن سعيداً».

إن ذلك يبدو لي مستحيلاً، ولكنْ في حالِ عدمِ عودتِك للحياةِ، تعودُ جميعُ ممتلكاتي إلى نقولا مايزر، النسيبِ الوحيدِ الذي بَقي لي»

جان مايزر

رسالةُ الأستاذِ هيرتز وكليمانتين.

أضافَ الأستاذُ هيرتز إلى هذه الرسالةِ بأنّه عندما جاءَ إلى دانتزغ لأعمالِه الخاصةِ التقى نقولا مايزر وهو تاجرٌ غني في الثامنةِ والستينَ من عمره.

«وقد استشارَ هذا العجوزُ بعد موتِ عمِّه، عشرةً من أطباءِ دانتزغ. وأطلعني على وثيقةٍ موقّعَةٍ منهم جاء فيها: إنَّ أيَّ إنسانٍ مجففٍ لا يتمكنُ من العودةِ إلى الحياةِ بأي شكلٍ أو بأيّةِ وسيلةٍ.

وبعد إطلاعي على أسماءِ هؤلاءِ الأطباءِ تبيّنَ لي أنهم جميعاً كانوا أعداءً للدكتورِ مايزرْ. طلبْتُ عندئذٍ من نقولا مايزر معرفةَ مصيرِ جسدِ العقيدِ وأسبابِ عدم إحتفاظِه به.

ـ أجابني: لم يعُدْ باستطاعتي أن أنامَ. كنت

أحلمُ بأنه يتحركُ في صندوقِه ويأتي إليَّ في أثناءِ الليل ليجرَّني من رجلي. فبعتُه بعدَ خمسَ عشرةَ سنةً ولا أعلمُ ما حلَّ به.

- وأينَ أصبحتْ مخطوطاتُ الدكتور ودراساتُه عن عودةِ الحياةِ؟

- لم أجدْها!

وكتبَ الدكتورُ هرتز أيضاً، بأنه لا يرى سبباً يحولُ دونَ عودةِ الحياةِ إلى رجلٍ مجفَّفٍ. ولكنّهُ يعتقدُ أن جسدَ العقيدِ فوغاس قد قاسى من البَرْدِ والحرارةِ والرطوبةِ خلالَ ستٍ وأربعينَ سنةً. وخاصةً منذ أصبحَ خارجَ منزلِ مايزر. لذلك فهو يتساءلُ عما إذا كانَ بإمكانِ الأنسجةِ امتصاصُ الماءِ الذي سُحِبَ منها؟

لم يقرأْ آلُ رينو أمامَ كليمانتين سوى بضعةِ أسطرٍ من هذه الرسالةِ لكنَّ الفتاةَ لم تكنْ تنتبهُ لما يقرأون. فهي تقضي معظمَ وقتِها معَ الدكتور مارتو

الذي أخذ يهتمُ أكثرَ فأكثر بالمومياءِ. وكانت تتناقشُ معه ويجريان معاً تجاربَ على الدولابياتِ.

في منزلِ عمّتِها كانت تفكرُ قليلاً بليونَ وكثيراً بالعقيدِ. وعندما كانت تأتي إلى منزلِ آل رينو كانت تهتم بالميتِ خصوصاً حتى فقدَتْ نضارتَها. وكانوا يتكلمون دائماً عن الزواجِ ولكن الله وحدَه يعلمُ متى سيحصل ذلك.

وفي صباحِ أحدِ الأيّامِ قال لها الدكتور مارتو:
إنّني قد فَعَلْتُ شيئاً بالمومياءِ يا ابنتي العزيزة. فقد أَرْسَلْتُ إلى الأستاذِ كارل نيبور الجزءَ الصغيرَ من أُذُنِ العقيدِ والذي انتزعَهُ ليون. سيُخْبِرُنا هذا العالِمُ المعروفُ والرصينُ عما إذا كانتِ الأنسجةُ لا تزالُ حيّةً، وعمّا إذا كانَتْ إعادةُ الحياةِ إلى هذا الرجلِ ممكنةً. وحالما يصلُني الجوابُ سأبلغكِ إياهَ. لم أقلْ له إن ما أَرْسَلْتُهُ إليه هو قطعةٌ من أُذُنٍ. فإذا وجدَ الأنسجةَ صالحةً أطلبُ منه الحضورَ إلى فونتين بلو

ومساعدتَنا على إعادةِ الحياةِ إلى العقيد.

عند سماعِ كليمانتين هذا الخبرَ، استعادَتْ صحتَها فوراً، وعادَت إلى الغناءِ والضَحكِ وجرى الحديثُ مجدداً عن الزواج.

وهذا ما جعَل ليونُ يقول: «عادت إليّ أخيراً».

ولكنّ والدتَه أجابت: «لستُ متأكدةً. من يدري إذا كان الحزنُ لن يعاودَها إذا علمَتْ أن الرجلَ ميتٌ حقاً؟ وإذا عادت إليه الحياةُ؟ في الحقيقةِ لقد اخطأتَ يا ليونُ بشرائِك هذه المومياءَ. وهذا ما أسميه وضعَ المالِ في غيرِ مكانِه».

في صباحِ يوم أحد دخلَ الدكتورُ مارتو منزلَ كليمانتين وصرخ بها: إقرأي هذه الرسالةَ من الاستاذِ نيبور. لقد عَرَفَ بنفسِهِ أنني أرسلْتُ إليه الطرفَ الأعلى للأذُنِ. وهو يقولُ إنّ الأنسجةَ، كلَّ الأنسجةِ - مجففةٌ ولكنَّها لا تزالُ سليمةً!

كثيرٌ من الشائعاتِ في فونتين بلو.

بعدَ قليلٍ سرَتْ شائعةٌ في كلِّ مدينةِ فونتين بلو، بأن الأستاذَ كارل تيبور سيصلُ مع ستةِ مندوبين عن إحدى الجمعياتِ العالميةِ لمحاولةِ اعادةِ الحياةِ إلى مومياءَ لها من العمرِ ستٌّ وأربعون سنةً.

كان البعضُ معَ هذه المحاولةِ والبعضُ الآخَرُ ضدَّها. وكان يشغلُ فونتين بلو الفوجُ الثالثُ والعشرون الذي قاده العقيدُ فوغاس منذ شباطَ ١٨١١ حتى تشرينَ الثاني ١٨١٣، والذي صدَّ الخيّالةَ الروسيةَ في معركةِ درسد. وفكرةُ مشاهدتِه شاباً وحيّاً بدَتْ طبيعيةً بالنسبةِ للجنودِ.

قام بزيارةِ آل رينو كلُّ مَنْ كان في المدينةِ يرتدي ثياباً عسكريةً كما قام قائدُ المدرّعاتِ بزيارتِهِ عدّةَ مراتٍ في محاولةٍ للإجتماعِ بكليمانتين.

كانتِ الفتاةُ الجميلةُ كليمانتين أكثرَ سعادةً من أيّةِ امرأةٍ في العالم. وبما أنها كانت على يقينٍ بأنها فعلت ما كان عليها أن تفعلَ فقد أحبّتْ عزيزَها ليون وكانَتْ تؤكدُ حبَّها له كلَّ يوم.

- سنتزوج، قالت له، غداةَ إعادةِ الحياةِ إليه. وسيحضرُ العقيدُ حفلَ الزواجِ بِدونِ شكّ، بعد كلّ الذي فعلتَهُ من أجلِه، آهٍ! يا زوجيَ في المستقبلِ القريبِ. لقد أردْتَ دفنَه، سأخبرُه بذلك سيقطعُ لكَ اذنيك بدورِه! إنّني أحبُّكَ.

- ولماذا نؤجلُّ زواجَنا! إن هذا العقيدَ ليس من انسبائِنا، كما تَبيّنَ لي من الإطلاعِ على جميعِ الأوراقِ الثبوتيةِ لعائلتينا. ماذا يهمُنا منه؟ أخذَ البعضُ يتحدثُ عَنْ حبِّكِ لهذا الرجلِ الذي بلغَ السبعينَ من عمرِهِ.

- إنه يبدو في الرابعةِ والعشرين من عمرِه، وانني، بالتأكيدِ، أحبُّه كوالدٍ أو كأخٍ إذا كنتَ تفضّلُ

ذلك لأنه لا يزالُ شاباً مثلي. وربّما سأحبُه كابنٍ عندما نعيدُه إلى الحياةِ، ولكنك لن تخسرَ شيئاً يا عزيزي ليون. فلك في قلبي المكانُ الأولُّ والأفضلُ، ولن يتمكَنَ أحدٌ، حتى هو، من الحلولِ محلَّك

عند هذه الكلماتِ وصلَ قائدُ شرطةِ فونتين بلو وقالَ إلى ليون:

- هل فكّرتَ، سيدي، بما يجبُ عليك أن تفعلَ؟ إن لديك رجلاً ميتاً يجبُ دفنُهُ خلالَ ثلاثةِ أيامٍ. هذا هو القانونُ!

- ولكننا نفكرُ بإعادتِه إلى الحياةِ قبلَ انقضاءِ ثلاثةِ أيامٍ

- قد يكونُ ذلك صحيحاً، ولكنَّ القانون هو القانون.

- إذاً أنت تأمرُني أن أدفنَ رجلاً ربما لا يزالُ حياً!

- آه! أنا لا أصدرُ الأوامرَ ولا اتحملُ أيّة

مسؤوليةٍ، ولكنْ بأيِّ حقٍ تريدُ اعـادَة الحياةِ لإنسـانٍ؟ في أي بلادٍ تُتبعُ عادةُ إعادةِ الحيـاةِ؟ إنني لا اعرفُ أيَّ قانونٍ يسمحُ بذلك.

ـ هل تعرفُ قانوناً يمنعُ ذلـك؟ وفي حالـة كهذه كلُّ ما ليس ممنوعاً يُسمحُ به.

ـ ربما كان ما تقوله صحيحاً بـالنسبة للبعضِ، أما بالنسبة لنا، نحن رجالُ الشرطةِ، فواجبُنا المحافظةُ على النظامِ. وإعـادةُ الحيـاةِ، سيـدي، قـد تسببُ الفوضى.

ـ لكنّها فوضى مفيدة.

ـ لا تـوجدُ فـوضى مفيدةٌ. ثم إنكم لا تبغـون إعـادةَ الحياة لـرجلٍ فقير؛ إنه عقيـدٌ يحمـلُ أوسمـةً وهنـاك منافـعُ لمن حـولَـه، ويجبُ عـدمُ التـدخـلِ في شؤونِ الجيشِ.

ـ انني لا اتـدخلُ في شؤونِ الجيشِ، سيـدي،

إلا لإعادةِ ضابطٍ إليه! وأنتَ تتدخـلُ لحرمـانِ الجيشِ من هذا الضابط.

ـ ولكنْ بـالنسبـةِ إلى سـائـرِ الضبـاطِ هنـاك الترقياتُ، وهذا سيؤدي إلى مشاكلَ وإلى أسئلةٍ تُطرحُ من قِبَلِ الكثيرين، واخيـراً هناك الـدينُ! فإذا كـان السيْد فوغاسُ قد ماتَ، فتلك مشيئةُ اللهِ.

ـ كلا يا سيدي، فأنـا على يقيـنٍ بأنني لن أعيدَ فـوغاسَ إلى الحيـاةِ إذا كان اللهُ لا يـريـدُ ذلـك. فـلا تعمـلْ ضد ارادتِـه ولا تنسَ أننا في فـونتين بلو بجانبِ الفوجِ الثالثِ والعشرينَ. ماذا يفعلُ الجنودُ لـو منعتنا من إعادةِ الحياةِ لقـائدِهم القـديمِ؟ عندئـذٍ ستحدثُ الفوضى.

ـ أرى يا سيدي انك على حقٍ، فالاسبابُ التي قدّمتَها وجيهةٌ وانت أحدُ الـرجالِ المـرموقـين في هذه المدينةِ ولكن عليك أن تَفْهمَني، فأنا لي مركزي، وإذا فَقَـدَ مَنْ هم أمثالي مـراكزَهم، مـاذا سيحل بفـرنسا؟

فَكِّرْ بذلك. تحياتي واحترامي.»

في صباحِ ١٥ آب حضر إلى منزلِ السيدِ رينو الاستاذُ تيبور والدكتورُ مارتو وعالمٌ من باريس. بدا الاستاذُ تيبور في الخامسةِ والثلاثينَ من عمرِه مع أنه بلغ الأربعين، إنه مرحٌ بطبعِه ويعرفُ كيفَ يتحدثُ إلى النساءِ. ولكن السيدةَ رينو لم تجدْ فيه الرصانةَ الكافية.

يعيش الإمبراطور

عندما عُرِضَ العقيدُ على السيدِ تيبور وجدَ أن وجهَه بحالٍ جيدةٍ، ولما نزعَ ثيابَه تمزّقت كالورقِ، وحكمَ على الجسدِ انه سليمٌ. لم يكن أحدٌ اكيداً من أيِّ شيءٍ ولكنَّ الجميعَ كانوا يأملون.

كان السيدُ رينو، الأستاذُ السابقُ، قد أجرى خلالَ حياتِه عدةَ تجاربَ. ولديه في مختبرِه كلُّ الأجهزةِ والآلاتِ المعروفةِ، ولحسنِ الحظِ كان الحمامُ إلى جانبِ المختبرِ.

نُقِلَ العقيدُ بعنايةٍ إلى الغرفةِ الأولى خوفاً من كسْرِ شيءٍ آخرَ غيرِ أذنِه. أسرعَ ليونُ وأشعلَ النارَ تحت القدرِ لغلي الماءِ ولقبه السيد تيبور بالسائقِ في ساحةِ المعركةِ. بعدَ قليلٍ زادت نسبةُ الرطوبة.

لم يكن أحدٌ نائماً في البيت. واستمرَ ليونُ في إشعالِ النارِ بينما كان السيدُ رينو والدكتورُ مارتو يراقبان ميزانَ الحرارةِ. أما السيدَة رينو فقد حضّرتِ الشايَ والقهوةَ والخمرةَ الساخنةَ.

وفي المطبخِ كانت غوتون تتضرعُ إلى اللهِ ألا يسمحَ بإعادةِ الحياة وهي تقولُ: هذه جريمة.

وبدأ الناسُ في المدينةِ في الذهابِ والإيابِ.

وفي الساعةِ الثانيةِ بتاريخ ١٦ آب، عادَتْ إلى جلدِ العقيدِ نضارتُه السابقةُ ولكنَّ أطرافَه استمَرّتْ في تصلبِها كما بقي البطنُ قاسياً بسببِ نقصٍ في المياهِ الداخليةِ، لذلك أُعِدَّ مغطسٌ وُضِعَ فيه العقيدُ لمدةِ ساعتين.

وفي صباحِ السابعَ عشرَ من آب، وبعد مغطسٍ ثالثٍ لمدةِ ساعةٍ ونصفٍ، بدا الوجهُ والجسدُ كوجهِ وجسدِ رجلٍ مُعافى. لم تعد الاسنانُ متلاصقة.

وأصبح اللسانُ طرياً. نظر الاستاذُ تيبورُ إلى العينين ونهضَ قائلاً: «إنني على يقينٍ الآنَ من أنَّهُ سيتكلمُ بعد بضعِ ساعاتٍ.»

أما السيدُ رينو فقد أبدى الملاحظةَ التاليةَ: «يجبُ أن يعودَ القلبُ إلى الخفقانِ أولاً». وناقشَ الرجالُ طويلاً هذا الموضوعَ.

كانت الأخبارُ السارةُ تنتقلُ بسرعةٍ. ودخلَ إلى منزلِ رينو جميعُ أصدقائِه وكثيرٌ من الفضوليين. ولوضعِ العقيد في المغطسِ للمرةِ الأخيرةِ كان لا بدَّ من إخلاء غرفةِ الحمامِ من الفضوليين، الذين تجمّعوا في المختبر. وكان الدكتور مارتو يدخلُ إليهم بين وقتٍ وآخرَ ليُطْلِعَهُمْ على الأخبار. وفي الوقتِ نفسِه امتلأ شارعُ الفيزاندري بالناسِ مما أدهشَ أحدَ المارةِ فتوقفَ متسائلاً:

- ماذا يحدثُ هنا؟ مأتمٌ؟

- بالعكسِ أيها السيدُ

ـ ولادةٌ؟

ـ ولادةٌ جديدةٌ!

وبعد ابقائه في المغطسِ مدةً طويلةً، أُعِيدَ فوغاسُ إلى سريرهِ، وقال الاستاذُ نيبور: «علينا الآنَ أن نُلْبِسَهُ ثيابَه».

قال السيدُ رينو: عندي ثيابٌ فضفاضةٌ بالنسبة لي، أحضريها يا غوتون»

لم تكن غوتونُ مسرورةً من كلِّ هذه العملية؛ ولكنها صرخَتْ عندما شاهدَتْ فوغاس: «مسكينٌ هذا السيدُ! لا تزالُ إماراتُ الشبابِ والنضارةِ باديةً على وجههِ! ومن المحزنِ حقاً ألا يعودَ إلى الحياةِ»

ولم تلبثِ القاعةُ أنِ امتلأتْ بعشراتِ الأشخاصِ، وكان الجميعُ يتكلمون مما دفعَ بالدكتور مارتو ليردِّدَ: «سكوتاً! انني أسمعُ دقاتِ القلب»

وعاودَ تيبور الضغطَ على بطنِ وصدرِ العقيدِ

وهو يقولُ: «لا تجزعوا! اطمئنوا! سيعودُ إلى الحياةِ بعد قليل».

في هذا الوقتِ كانت موسيقى الفوجِ الثالثِ والعشرينَ تمرُّ في الشارعِ، وسمع تيبور يصيح: «إنني اسمعُ تنفسَه».

وفجأةً دُفِعَ رأسُ الأستاذِ إلى الوراء وجلسَ فوغاسُ على سريرهِ دفعةً واحدةً وصاح:

«يعيشُ الإمبراطور»

العقيدُ فوغاس يأخذُ علماً بأخبارٍ تبدو قديمةً بالنسبةِ للبعضِ ويروي قصةَ حياتِه

لم يسبقْ لأحدٍ ممن كانوا في الغرفةِ أن شهدَ تجربةَ الإعادةِ إلى الحياةِ. لذلك صفّقَ الجميعُ. وفي لحظة انتقل الخبرُ حتى آخرِ الشارعِ ولم يعدْ باستطاعةِ أحد ضبطَ الجماهيرِ التي اندفعَتْ بالمئاتِ إلى داخلِ المنزلِ ، بينما كانَ الباقون يتدافعون للدخولِ ويدوسُ بعضُهم بعضَ النساءِ اللواتي وَقَعْنَ أرضاً.

عندئذ سُمِعَ نيبورُ يقولُ: أتريدون قَتْلَهُ أيها السادةُ؟

ولكنَّ أحداً لم يَصْغِ إلى كلامِهِ. فكلُّ واحدٍ يريدُ أن يرى ماذا يحصلُ. وهكذا وقعَ العالِمُ أرضاً بدورِه، ولّما حاوَلَ السيدُ رينو وابنُه مساعدتَه على النهوضِ وقعا فوقَه. وكانت السيدةُ رينو جالسةً عند

ركبتي العقيدِ فأخذَتْ تصيحُ ، مما جعلَ فوغاس ينهضُ كزنبركٍ Ressort ، ويقولُ: وحقِّ الله! يجبُ إخراجُ الجميعِ إلى الشارعِ .

وبسرعَةٍ خلا المكانُ حولَه وبدا المتطفلون وكأنَّ بعضَهُم ذابَ في البعضِ الآخَرِ. وتذمّرَ الذين لم يشاهدوا شيئاً. وظنَّ فوغاس أن هناك بعض المستائين فأخذ كرسياً، استخدمَه كسلاحٍ وضربَ به العلماءَ والجنودَ والأصدقاءَ والمتطفلين وقائدَ الشرطةِ ورمى بالجميعِ إلى الشارِعِ وهو يطلقُ صيحاتٍ مخيفةً.

بعد ذلك أقفلَ البابَ بالمفتاحِ وعاد إلى المختبرِ ليشاهدَ ثلاثةَ رجالٍ يقفون بالقرب من السيدةِ رينو، فسأل المرأة العجوزَ بلطف:

«هل تريدُ سيدتي أن أرمي بهؤلاء الثلاثةِ الباقين على الآخرين؟»

- «كلا! كلا، إنهم زوجي وابني والأستاذُ نيبور الذي أعاد الحياةَ اليك»

«ـ إذن إحتراماتي لهم أيتها الأمُ! ففوغاسُ شديدُ الاحترامِ لأصدقائِه. وأنتَ يا منقذي الشاب ضعْ يدَكَ في يدي».

في هذا الوقتِ أبصر عدداً من المتطفلين الذين تمكنوا من تسلقِ الجدارِ ووصلوا حتى النافذةِ فاتجه نحوَهم فوراً وفتحَ النافذةَ بقوةٍ فسقطَ الجميعُ في الشارعِ وسُمِعَ يقول: «تعلمْ أيها الشعبُ أن تحترمَ النساءَ ومنزلَ الجيرانِ. ولْيَعَلَمْ الذين لم يعجبْهم تصرفي أنني العقيدُ فوغاسُ قائد الفوجِ الثالثِ والعشرين، يعيشُ الامبراطور».

صفّقَ له نصفُ المتطفلين بينما ضحكَ الآخرون. وسُمِعَتْ بعضُ الشتائِمِ فخرجَ ليون رينو ليعتذرَ ممن يجبُ الاعتذارُ لهم، ولِيَطْلُبَ من بعضِ الأصدقاءِ الحضورَ إلى منزلِه مساءَ ذلك اليومِ لتناولِ طعامِ العشاءِ مع العقيدِ الرهيبِ، ولم ينسَ، بالطبعِ، أن يُرْسِلَ مَنْ يُعْلِمُ كليمانتين بما حدثَ.

بعد أنْ تحدثَ فوغاسُ إلى الشعبِ عادَ وجلسَ وقال: «فلنتكلّمِ الآن! هل كنتُ مريضاً؟

ـ مريضاً جداً

ـ مستحيلٌ! إنني جائعٌ وبانتظار العشاءِ أقبلُ بسرورٍ كأساً من الخمرِ. ثم تابعَ كلامَه بعد أن أصبحتِ الكأسُ في يدِه: لكنْ أخبروني أينَ أنا؟ ويبدو لي أنني لا أرى بينكم مَنْ يحبُّ لحمَ الخنازيرِ أو البطاطا. ماذا تفعلون داخلَ ألمانيا؟».

أجابَ الأستاذُ نيبور: «لا تكثرْ من طرحِ الأسئلةِ، أيها الضابطُ العزيزُ. أترُكْ لنا فرصةً للتحدثِ معك بهدوء وانتظامٍ، فعليكَ أن تتعلمَ أشياءَ كثيرةً» إحمرَّ وجهُ العقيدِ من الغضبِ وأجابَ:

«لن أتلقى دروساً منكَ، يا سيدي الصغير»

في هذه اللحظةِ وَقَعَتْ نقطةُ دمٍ على يدِه وبدّلتْ أفكارَه فسأل:

«عجباً! هل أنا مجروحٌ؟

ـ إنه شيء بسيطٌ. . أُذُنٌ مكسورةٌ.

وضع يدَه على أذنِه وقال:

ـ هذا صحيحٌ. لكنني لا أتذكرُ هذا الحادثَ

ـ سأضمّدُ جُرحَك وسيُشفى بعدَ يومين.

ـ تضميدٌ للأُذُنِ؟ لا أظنُّ أنـك تتكلم بجدِّيـةٍ. قليـلٌ من الترابِ عليهـا وينتهي الأمرُ. لكنَّ الأستـاذَ نيبورَ أصرَّ على تضميدِ الجرح. وفي هذه اللحظة دخل ليونُ وقال للاستاذ: حسناً، إنك تُصلحُ الأذى الـذي كنتُ سبَبَهُ.

ـ صاح فوغـاس وهو يمسك بذراع ليـون: «يا للسّماءِ! هذا أنتَ إذاً إيها الصغيرُ، الذي كَسَرَ أُذُني؟

لكنَّ ليونَ الوديعَ وجدَ طريقةً لإبعاد العقيدِ وقال:

«نَعَمْ أيها السيدُ! أنا الذي شدَّ أذنَك فجُرحَتْ، وهكذا قُدّرَ لي أن أُنقذَ حياتك بعدَ أن

اشتريتك بمَالي الخاصِ، ثم امضيتُ ثلاثـةَ أيامٍ بلياليها وأنا أغلي لك الماءَ واضغطُ على بطنِك وصدرِك بمساعدة هذين السيدين. أرجو أن تُقْلِعَ عن عادة مناداتي «بالصغير» ومناداةِ أمي «بالوالدة» ورمي أصدقائي في الشارعِ وأنتَ تُسْمِعُهم أغلظَ الشتائم.

عندها صافحَ العقيدُ جميعَ الحاضرين وشربَ كأسَهُ وقال بصوت مضطربٍ:

ـ «موافقٌ! بعد أن تغلبتُ على جميعِ شعوبِ العالم، سأتغلبُ على نفسي. هذا ما قررته». ثم أضافَ: أنا لم أتلقَ، إذاً، إثنتي عشرةَ رصاصةً في جسدي؟ وأنا لستُ أسيراً.

ـ أنت حرٌ.

ـ حرٌ! يعيش الامبراطورُ! فلنسرعْ إذاً! كم تبلغُ المسافةُ إلى دانتزغ؟

وجدوا صعوبة كبيرة لإقناعِه بأنه نامَ لمدة ستٍ وأربعين سنةً. وأنهم أصبحوا الآنَ في السنة ١٨٥٩.

ولما عرَفَ ذلك صاح:

ـ اتمنى أن يكونَ الروسُ قد دُحروا، وأن تكونَ أوروبا قد توحّدت. ولكن كيف حالُ الامبراطور؟

ووجدوا صعوبةً أكبر لاقناعه بأن نابوليونَ الأول قد غُلِبَ، وماتَ، وأن نابوليونَ الثالثَ يحكمُ فرنسا. عندئذ صرخ:

ـ لو كنتُ في واترلو لقطعت بلوخر وولنغتون إلى نصفين... ثم نظر إلى الخريطة وقال: هذه هي فرنسا إذاً؟

وجبةُ الطعامِ الأولى للعائدِ إلى الحياةِ

تسكنُ كليمانتين في بلدة موري ولن تتمكنَ من الوصولِ إلى فونتين بلو قبلَ الساعةِ العاشرةِ أو الحاديةَ عشرةَ مساءً. وكان ليون سعيداً بأن يقدِّم لها الرجلَ الذي أنقَذَتْه. في أثناء ذلك، أعدَّتْ غوتون وجبةَ طعامٍ لاثني عشرَ شخصاً وجرى تقديمُ فوغاس إلى عمدةِ المدينةِ والدكتورِ مارتو والكاتبِ العدلِ بونيفه ورجلِ الأعمالِ في العائلةِ السيد أودري وثلاثةِ علماءَ من باريسَ.

كان قد تلقى كلٌّ من هؤلاء ركلةً من رجلِهِ أو ضربةً بكرسي، وأصابَ الأذى الجميعَ إما في ضلعٍ أو في ساقٍ أو في ذراعٍ، وخافوا كثيراً أن يتناولوا طعامَ العشاءِ مع مجنونٍ. لكن فضولَهم تغلَّبَ على خوْفهم ووصلوا في الوقت المحددِ. استقبلهم العقيدُ بمنتهى

اللطفِ واعتذرَ عن تصرفِهِ كرجلٍ يعودُ من العالمِ الآخرِ. تكلَّم كثيراً، وربّما أكثرَ مما يجبُ، ولكنهم كانوا سعيدين للإصغاءِ إليه! صافحَ الدكتور مارتو وسألَ عنِ الشخصِ الآخرِ الذي يدينُ له بحياتِه، فأجابَه ليون: «أرجو أن تتعرفَ عليه هذا المساءَ».

حضَر الجميعُ باستثناءِ العقيدِ رولان قائدِ الفوجِ الثالثِ والعشرين، الذي وصلَ أخيراً بعد أن لاقى بعضَ المتاعب عند مرورِه في شارع الفيزانداريا. والعقيدُ في الخامسةِ والأربعين من عمره، قليلُ الكلامِ، صريحٌ، يعلمُ الكثيرَ دون أن يُظْهِرَ ذلك. تقدمَ رأساً نحو فوغاسَ، ومن دونِ أن يتذمرَ من الضربةِ التي رمتْه أرضاً، كالآخرين، صباحَ ذلك اليومِ قال له: سُرِرْتُ جداً، يا صديقي العزيزُ، كما سُرَّ جميعُ رجالِ الفوجِ، بعودة الحياةِ إليكَ. فالفوجُ الثالثُ والعشرون الذي لي شرفُ قيادتِه كان يحترمُك وهو الآنَ يُحبُّكَ كصديقٍ.

- أجابَ فوغاس: «إنني لم أحصلْ على أية ترقيةٍ، وأنا لست ميتاً. إذن فأنا لا أزالُ عقيداً لكن ليس على الفوج الثالثِ والعشرين. ولكنني أرى، لحسنِ الحظِ، أن الفوجَ في أيدٍ أمينةٍ».

ثم بدأَ العشاءُ، وكان فوغاسُ يخدمُ نفسَه، ويتناولُ الطعامَ من جميعِ الأطباقِ، ولا يتوقفُ عن الكلامِ إلا ليشربَ كأساً كبيرةً من الخمر، كان يشعر بجوعٍ وعطشِ العائدِ من العالمِ الآخرِ.

وأخيراً قال:

- لا تستغربْ، أيها الوالدُ الطيبُ رينو، أن تراني أخدمَ نفسي على مائدتِكم؛ فقد تعوّدتُ ذلك، إنما ليس في روسيا، بالطبع. ولكنْ هلْ تعلمُ أنني نمت أمسِ في دانتزنغ دونَ أن أتناولَ طعامَ العشاءِ؟

- ومنذُ ذلك الوقتِ أصبحتَ غنياً، يا صديقي. فالدكتورُ مايزر الذي أنقذَكَ من الروسِ بتجفيفكِ، تركَ لك كلَّ ثروتِه. وإذا حسبْنا الفوائدَ،

يكون إبنُ أخيه مديناً لك بأربعة ملايين فرنك.

ـ إنَّ المالَ لا يعني لي شيئاً. فسأعطي هذه الملايينَ لأحدِ الناسِ. في اليومِ الذي يقولون لكم فيه إن فوغاسَ لم يعدْ يستطيعُ الانتسابَ إلى صفوفِ الجيشِ، يمكنكم الإجابَةُ أنه انتهى. حسناً، يا صديقي العزيزَ، والتفت نحو قائدِ الفوجِ الثالثِ والعشرين، متى استطيعُ تقبيلَ علمِ الفوجِ؟

ـ «غداً، أجابَ السيدُ رولان، إذا تكرَّمْتَ وتناولْتَ طعامَ الغداءِ عندي، معَ بعضِ ضباطِ الفوجِ».

ودونَ أن يتوقفَ عن الطعامِ، طرحَ فوغاسُ ألفَ سؤالٍ وسؤالٍ عن الأسلحةِ الجديدة وعنِ الحروبِ.

ـ لم تحصلْ أية حَرْبٍ هذه السنةَ! باستثناءِ حربِ الجزائرِ!

ـ إنَّ حربَ الجزائرِ لا تعني لي شيئاً، المهمُّ هو إعادةُ تقسيمِ أوروبا. لقد فعلْتُ حسناً بعودتي لأن لدينا عملاً كثيراً. يجبُ أن نهاجمَ انكلترا بخمسِ مئةِ ألفِ جنديٍ، وبعد ذلك يتحققُ السلامُ...

وكان جوابهُ على كلِّ ما يقالُ له: «الصَدَاقةُ مستحيلةٌ مع انكلترا» أوضحوا له أنها الآن بلدٌ صديقٌ، وأنَّ الانكليزَ كانوا حلفاءَ الفرنسيين ولكنه مع ذلك قال: «إن محاربةَ الروسِ شيءٌ جيدٌ، ولكنْ لا بدَّ بعدَ ذلك من قذفِ هؤلاء الإنكليز إلى البحر. وبعدْ ألم تذهبوا إلى موسكو؟ في زمني، لم تكنْ معاهداتُ السلامِ توقّع إلاَّ في العواصمِ. كنا نتقدمُ، نصلُ، نوقّعُ وينتهي كلُّ شيء».

وهنا، لا بدَّ من قولِ الحقيقة، وهي أنَّ فوغاسَ أكلَ وشربَ اكثرَ من عشرةِ أشخاصٍ. وَصَعِدَتْ إلى رأسِه أبخرةُ اللحومِ والخمرِ

والكلماتِ، فشربَ نَخبَ تدمير إنكلترا وصحةَ جميعِ المدعوين.

بدا وكأنّه سيقعُ تحتَ الطاولةِ، ولكنَّ ذلك لم يحدثْ. فعندما حرّكتِ السيدةُ رينو كرسيَّها إيذاناً بانتهاء العشاءِ، نهضَ ومشى دونَ ترنحٍ ثمَ شربَ فنجانينِ مِنَ القهوةِ وبعضَ أقداحِ الخمرِ.

- «أخبرْنا قصةَ حياتِك»، سألهُ السيدُ مارتو.

ثم تحلّقَ الجميعُ حولَه. فقال:

«أعطوني قدحَ ماءٍ. فأنا لا أتكلمُ عن نفسي دائماً، كما أنَّ شربَ الماءِ مرةً كلَّ ستٍ وأربعينَ سنةً لا يلحقُ بيَ أيَّ ضررٍ.

ثم أخذَ يروي لهم قصةَ حياتِه: «في الثامنةَ عشْرةَ من عمري كنتُ في أوسترليتز. وفي هذه المعركةِ خدعَ الإمبراطورُ الكبيرُ الروسَ! هل تتذكرون كيف؟ صحيحٌ، لم تكونوا قد وُلِدْتم. ثم شاركْتُ في معاركِ

برلين وإيلو، ويانا، وفاغرام وفيانا، ومدريد وموسكوفا، كانتِ الحربُ في روسيا أقلَّ غرابةً. كان الثلجُ يتساقطُ واضطررْتُ أن آكلَ أعزَّ صديقٍ لي، أي جوادي الذي رافقني إلى جميعِ معاركِ أوروبا.

ولكنْ في سنة ١٨١٣، وقبلَ الانتصارِ على أربعة جيوشٍ، كنتُ أقيمُ في مدينةِ نانسي عند ذوي فتاةٍ جميلةٍ في الثامنةَ عشْرةَ من عمرِها وتدعى كليمانتين. وقد أحببتُها من النظرةِ الأولى ووعدتُها بالزواجِ وتزوجنا. ولكنَّ الحربَ اندلعَتْ ورحلْتُ في اليومِ التالي وقبلَ أن أعطيَها إسمي علانيةً. ولكنني وعدْتُها بالعودةِ ووعدتْني بالانتظارِ. وبعد تغلبِنا على بعض الجيوشِ، وخلالَ استراحةٍ بينَ معركتينِ، استلمْتُ منها رسالةً تقولُ لي فيها «ستصبحُ أباً» فهل حصلَ ذلك حقاً، من المفروضِ أن يكونَ إبني في السادسةِ والأربعينَ من عمره حالياً، وأن يكونَ أصبح بدورِه والدي.

أرسلني الإمبراطورُ إلى دانتزغ لإبلاغِ جيوشِهِ أوامرَه بالعودةِ إلى نهر الرين وكنت في طريقي لتنفيذِ المَهمَّةِ عندما قبضَ عليَّ الروسُ على إحدى البحيراتِ المجمَّدةِ. ورقدْتُ رقاديَ الأخيرَ حسبَ اعتقادي. إنني لا أزالُ أحلمُ بمشاهدةِ كليمانتين. فهلْ يتحققُ حلمي يا كليمانتين الوديعةُ، يا أفضلَ النساءِ والامهاتِ.

ماذا أقولُ؟ إنني أشاهدُها من جديدٍ! إن عينيَّ لا تخدعانني! إنها هي! لا تزالُ كما تركتُها! كليمانتين! تعالي لأضمَّكِ بين ذراعي! إلى قلبي! حسناً! ماذا قلتمْ لي؟ الإمبراطورُ الكبيرُ لم يمُتْ ولم يمضِ على العالمِ ستٌّ وأربعونَ سنةً: فهي لم تتغيّر!

وكانت خطيبةُ ليون رينو قد دخلَتْ إلى القاعةِ وظلَّتْ جامدةً كالحجرِ.

الحب

ضمها فوغاسُ بين ذراعيه وقبّلَها مئةَ مرةٍ وهو يقولُ:

«كليمانتين! إن الآلهةَ معنا! لقد أعادَتْكِ إلي يا زوجتي وأمَّ طفلي.

لم يتركْ للفتاةِ الوقتَ لتفكّرَ في الدفاعِ عن نفسِها. ولكنَّ ليون رينو، لحسنِ الحظِ، انتزعَها من ذراعي فوغاسَ بعزيمةِ رجلٍ قرّرَ المحافظةَ على ملكِه، وصاحَ وهو يشُدُّ قبضتيه:

إنك تُخطىء أيها السيدُ، إذا كنْتَ تعتقدُ أنّكَ تَعرَّفْتَ على الآنسةِ، إنها لم تكنْ معاصرةً لك، وليست خِطّيبتَك. إنها خطّيبتي أنا. وهي ليسَتْ أماً لابنكِ بل أمَّ أولادي في المستقبلِ.

انتفضَ فوغاسُ وأبعدَ ليونَ كما يبعدُ لعبةً ووقفَ مجدداً مقابلَ الفتاة.

ـ هل أنتِ كليمانتين؟

ـ نعمْ أيها السيدُ

ـ أرأيتمْ جميعاً بأنها زوجتي نفسُها،

أمسك ليون بسترةِ العقيدِ بكلِّ شجاعةٍ وهو يقولُ:

«ولكنها تدعى كليمانتين سومبوكو. وهي لم تولدْ في نانسي وعمرُها حالياً ثمانيةَ عَشَرَ عاماً:.

ـ والأخرى أيضاً.

ـ الأخرى التي كان عمرُها ثمانيةَ عشرَ عاماً سنةَ ١٨١٣، أصبحَتِ الآنَ في الرابعةِ والستينَ. وليس لكَ الحقُّ بكلِّ النساءِ اللواتي يحملْنَ اسمَ كليمانتين وأعمارُهنّ بين الثمانيةَ عشرَ عاماً والرابعةِ

والسِّتينَ. فقليلٌ من المنطقِ السليمِ والتهذيبِ والوفاءِ. إنه واجبٌ عليك.

ثم دفعَ العقيدَ بدورهِ وأوقعَهُ على كرسّيٍ.

نهضَ فوغاسُ وهو في أقصى حالاتِ الهيجانِ. ولكن كليمانتين أوقفَتْهُ بابتسامةٍ وحركةٍ من يدِها وقالَتْ بصوتٍ في منتهى الرقة:

«اعذرْهُ يا سيدي، إنه يُحبّني.»

قالَ العقيدُ: «حسناً! اجلسي إلى جانبي» ثم أخذ يتأملُها من رأسِها إلى اخمصِ قدميها ويقولُ:

«هي نفسُها بكلِّ تأكيد: لقد تعرّفَتْ إليها عيناي وقلبي وجميعُ جوارحي، فهل يعقلُ أن تتشابهَ امرأتان إلى هذا الحدِّ؟ هلِ استرجعْتُ حياتي لأخسرَ عقلي؟ كلا إنني أعرفُ نفسي وأجدُ ذاتي، اعتقدْتُ اني وجدتُكَ يا كليمانتين فإذا انتِ لغيري! هذا مستحيلٌ! لقد شاءَ اللهُ الذي منحَكَ لي عند يقظتي أن

يعيدَ إليَّ جميعَ ممتلكاتي، إنني اجثو عند قدميك! فكوني زوجتي!»

ثم ضمّها بين ذراعيه وعانقها من جديدٍ،

عندها مدّتِ الآنسةُ سومبوكو يديها الكبيرتينِ الجافتَين وقالت:

كفى أيها السيدُ، ابنةُ اخي ليسَتْ لكَ، لقد وَعَدْتُ بها واعطيتُها، واعلمْ أنها ستحتفلُ بزواجِها من السيدِ ليون رينو، الذي انقذَ حياتَكَ، بعدَ غدٍ في التاسعَ عشرَ من الشهرِ الجاري.

ـ ابداً يا عمةُ! إذا كانَتْ تقبلُ بهذا الشابِ....

ـ ماذا تفعلُ؟

ـ سألعنُها!

استغرقَ ليونُ بالضحكِ. فقد اضحكَتْهُ لعنةُ هذا العقيدِ ابنِ الأربعِ والعشرينَ سنةً، ولكن

كليمانتين ارتمَتْ على ركبتي فوغاسَ وهي تصيحُ وتشدُّ على يديه: «لن اتزوجَ من ليون، يا سيدي، إذا كنْتَ تمانعُ في ذلك. سأفعلُ كلَّ ما يرضيك، ولكنني استحلفُك باللهِ ألاّ تُنْزِلَ بي لعنتكَ!

ـ «عانقيني، قال فوغاسُ، وسأسامحُك»

نهضَتْ كليمانتين وعلى وجهِها اماراتُ السعادةِ، ولكنْ بماذا فكَّرَ الجميعُ: أصبحتِ المومياءُ القديمةُ تتحكمُ في منزلِ منقذيها! وكليمانتينُ الصغيرةُ الجميلةُ التي كانت تحبُّ ليونَ أصبحَتْ مستعدةً لهجره.

ـ «هذا يدفعُ إلى الجنونِ» ـ قال الاستاذ تيبور.

ـ «لماذا أحضَرْتَ لنا هذه المومياءَ من برلينَ»؟ قالتِ السيدةُ رينو.

ـ «هذه هي غلطتي»، صَرَخَ السيد رينو.

ـ كلا هي غلطتي أنا! أجابَ الدكتورُ مارتو.

- «لا أفهمُ ما حَدَثَ لقلبِ هـذه الفتاةِ». قـال العقيدُ رولان

- عليَّ أن اضعَ حداً لهذه المهزَلةِ، قـالَتْ فيرجينيا سومبوكو. تعالي يـا كليمـانتين».

بدا فوغاسُ مـذهولاً:

- إذاً هي لا تقيمُ هنا؟

- كلاّ أيها السيدُ إنها تقيمُ معي

- إذاً، أنـا ارافقُهـا. ألا تـريـدين يـا حبيبتي كليمانتين أن تتأبطي ذراعي؟

- بكلِّ سرورٍ يا سيدي.

- لاحظَ ليونُ، وهو يـرتمي على كـرسيِّـه، أنـهُ يكلّمهـا بكلِّ بسـاطةٍ وأنها لا تستغرِبُ ذلك. بحث عن قبعتِه ليرافقَ هو أيضاً المرأتين، فلم يجِدْها، لقد أخذهَا فوغاسُ بلا كلفةٍ.

وفي الشارعِ التقتْ كليمانتين، كالعادةِ بالسيد

دوران، قـائدِ المـدرّعات. فقـالت: «أظنُّ أنه يهتمُ بي كثيراً».

- سننظرُ في الأمرِ.

- إنه دائماً على طريقي ولكنـه لم يعجبْني يومـاً. فالشخصُ الوحيدُ الذي خفقَ له قلبي هو ليون رينو

- حسناً! وما رأيُك بي أنا؟

- انتَ شيءٌ آخـر. انني احتـرمُـكَ وتبـدو لي كنسيبٍ سأحبُّه كثيـراً، والآن وصلْنا إلى المنـزلِ، عم مساءً أيها السيـدُ، عـانقْني، ليلةٌ سعيدةٌ يا ليون، وكنْ مـطمئناً. فـأنا أُحِبُّ السيـدَ فوغـاسَ بكل جـوارحي لكن حبي لـك يختلفُ. لم تُجِبِ العمةُ فيـرجينيـا عـلى تحيـةِ فوغـاسَ. أما ليـونُ فقد قـالَ للعقيدِ بعـد فتـرةٍ وجيزةٍ بأنـه لن يتردّد في اتخاذِ أيةِ وسيلةٍ للدفـاعِ عن خطَّيبتِه. أجابَ فوغاس:

إن يديّ مكبلتانِ بعرفانِ الجميلِ. فالتاريخُ لن

يذكرَ أن بيار فكتور كان جاحداً، وأنا لا أريدُ الزواجَ من كليمانتين دون موافقتِك، فكّرْ بأنها عزيزةٌ على قلبي ليس منذ أربعِ سنواتٍ فقط بل منذُ ما يقاربُ الخمسينَ سنةً، وأنتَ الذي اعطيتني الحياةَ هل تمنعُني أن اكونَ سعيداً؟ استرجعْ مني إذاً الحياةَ التي اعطيتنيها!

ـ انتَ غريبُ الأطوارِ يا عزيزي. لقد أخذْتَ قبعتي واحتفظْتَ بها على رأسِك. فوافقْتُ. أما أنْ اختفي لأن خطيبتي ذكّرَتْكَ بفتاةٍ في ناسي فهذا لن يكونَ

ـ سأعيدُ لك قبعتكَ يا صديقي، حالما تشتري لي قبعةً جديدةً. ولكنْ لا تطلبْ مني كليمانتين. ثم أما زالت تريدُك خطّيباً لها؟

ـ بكل تأكيدٍ.

ـ انها تحبّني.

ـ انتَ مجنونٌ!

ـ لقد شاهدتَها عند قدميّ.

ـ كان ذلك خوفاً، أو احتراماً، سمِّه ما شئتَ! ولكنّه لم يكنْ حُباً.

ـ سنرى بعد ستّةِ أشهرٍ على الزواج.

ـ وما هو موقفُك من كليمانتينَ الحقيقيةِ، تلك التي اعطتك إبناً؟ ألا تصغي إلى صوتِ الضميرِ؟

ـ انت تهزأ مني... أتريدُني أن اتزوجَ امرأةً في الرابعةِ والستينَ؟ كفى، أنا أحبُها وهي تحبُني، هذا هو الثابتُ والأكيدُ وستكونُ أنتَ شاهداً على زواجِنا.

ـ إنك لا تملكُ ما يكفي لإعالة امرأةٍ.

ـ انني ما زلتُ عقيداً يا صديقي ولي الحقُ براتبٍ ولا تَنْسَ ملايينَ دانتزغ. أعطني وصيةَ مايزر.

عندما وصلَ إلى الغرفةِ المخصّصةِ له في منزلِ رينو قبّلَ العقيدُ ليون بالقوَّةِ وقال له:

- إنني لن أنسى أبداً أَني مدينٌ لكَ بحياتي وبكليمانتين.

- إلى الغد، يا ولدي! إلى الغد. أجابَ ليونُ العقيدَ.

وفي الغرفةِ المجاورةِ كانت عائلةُ رينو لا ترى وسيلةً للتخلصِ من فوغاسَ الا بتسليمهِ إلى الجيشِ واعادتِهِ للحربِ.

نامَ ليونُ وهو يحلمُ أنه تخلّصَ من العقيدِ، عندما استيقظَ على ضجةٍ مخيفةٍ من ضرباتِ الأيدي والأرجلِ. أسرعَ إلى غرفةِ العقيدِ ليرى على الأرضِ كتلةً كبيرةً من الأعضاءِ المتشابكةِ. هذا كلُّ ما استطاع سماعَه ومشاهدتَه للوهلةِ الأولى. واخيراً أدركَ العقيدُ أنه ليسَ أمام عدوٍ روسي وأنه تشابَكَ معَ الخادمةِ البدينةِ غوتونَ التي جاءَت لإطفاءِ الفانوسِ الذي يدّخِنُ والذي نسيَ أن يُطفئَه.

عندئذ اجرَتْ معه عائلةُ رينو حديثاً معقولاً

ومنطقيا، ووافقَ العقيد، الذي كان مستاءً من تصرُّفِهِ، على مغادرةِ المنزلِ في اليومِ التالي بعدَ أن طلَبَ اقراضَهُ بعضَ المالِ ووعدَ أن يصبحَ عقيداً في الجيشِ الجديد. ثم أضافَ:

سأمرُّ على دانتزع خلالَ هذا الوقتِ واستلمُ الملايينَ الأربعةَ ثم اتزوجُ كليمانتين.

المبارزةُ

في صباحِ اليومِ التالي، جاءَ العقيدُ رولانُ ليرى إذا كان بإمكانِ فوغاسَ تناوُلُ طعام الغداءِ معَه. ظنَّ أنه سيجدُه نائماً أو في الحمامِ. ولكنَّه وجدَه نشيطاً، وكان يستخدمُ موسى ليونَ ليحلقَ ذقنَهُ ويصغي إلى ما يقولُه رولان وهو يغني.

أما ليونُ، فقد ذهبَ إلى منزلِ خطّيبتهِ ليبلغَها أنَّ كلَّ شيءٍ يبدو أفضلَ من قبلُ، وأنَّ فوغاسَ قد وَعَدَ بأن يرحلَ إلى باريسَ في اليومِ ذاتِه، وبأنهما يستطيعان الزواجَ في الغدِ.

ولكنَّ كليمانتينَ أجابَتْ وهي تبكي: «لنْ أكونَ سعيدةً بدون موافقةِ فوغاسَ». مما حملَ الحاضرينَ على اتهامِها بالجنونِ.

في أثناءِ ذلك كان رجالُ الفوجِ الثالثِ والعشرينَ يستقبلونَ فوغاسَ وهم يصيحون: «يعيشُ العقيدُ»!، وكان هو يشدُّ على أيديهم كرفاقٍ قدامى، ثم حيّى العلمَ وقال:

«في ظلِّ العلم، وبعد ستٍ وأربعينَ سنةً، يلتقي اليومَ جنديٌ فرنسيٌ مع عائلتِه. لك المجدُ أيّها العَلَمُ! في ظلِّكَ ستعيشُ فرنسا أجملَ أيامِها».

بعدَ الاحتفالِ قامَ الجميعُ لتناولِ طعامِ الفطورِ. جلسَ فوغاسُ إلى الطاولةِ مقابلَ رولانَ وأكلَ جيداً وتكلَّمَ كثيراً وشَرِبَ أكثرَ من جميعِ الضباطِ الحاضرين. وعندما نهضَ تعرّفَ على قائدِ المدرعاتِ السيد ماري فعرضَ عليه أن يتبارزا بالسيفِ.

- «سنتبارزُ غداً، يا سيدي» أجابه السيد ماري.

- «ونحن نمتطي الجيادَ وعـراةٌ حتى الخَصْرِ».

قال فوغاس:

- «كما تشاء، أجاب العقيدُ مـارني، ولكنَّ المبارزةَ لا تجري بهذه الطريقةِ في أيامِنا هذه».

- سأل فوغاسُ ببساطة: «ألم تعدْ قواعدُ المبارزةِ معروفةً حالياً»

أسرع السيدُ أودري واخطرَ كليمانتين وليون وهو يصرخ:

«هناك حدث جديدٌ! سيتبارزُ غداً فوغاسُ مع السيدِ مارني».

ولم تكدِ الفتاةُ تسمعُ النبأَ حتى وقعت مغمياً عليها.

عندَ عودةِ فوغاسَ من حفلةِ الفطورِ، حظّر على ليون الزواجَ من كليمانتين لأنه سيبتُّ بأمرِ الزواجِ عند عودتِه من باريسَ وألمانيا وبعد أن يستعيدَ رتبته وعائلتَه وثروتَه. ثم رفضَ المساعداتِ التي قدمتها له

عائلةُ رينو وأخذَ معه عن غير قصدٍ ثيابَ الأبِ وقبعةَ الإبنِ وطلب من السيدِ رولاَن ألفي فرنك واستأجرَ غرفةً في فندق «الميناء الأزرق» ونامَ دون أن يتعشى إلى أن جاءَ من ذكّره بموعدِ المبارزةِ.

لم يكنْ بحاجةٍ إلى تذكيرهِ بما حدث. فقد عادَ إلى رشدِه فوراً، وصبَّ سطلاً من الماءِ على رأسِه وقال:

«هيا! يعيشُ الامبراطورُ! سترَونَ كيفَ يجيدُ الجيشُ القديمُ استخدامَ السيفِ».

كان فوغاسُ، وهو عارٍ حتى خصره، يشبهُ الهاً شاباً. ابتسمَ، وحيّى، بعدَ أنِ امتطى الجوادَ الجموحَ الذي قُدّمَ له.

أما السيدُ مارني، الأشقرُ الجميلُ، فإنه لم يبدُ سعيداً وهو يظهرُ أمام ضباطه عارياً حتى الخصرِ. كان جوادُه سريعاً، ولكنّه مع ذلك كان أبطأَ حركةً من

جوادِ فوغاسَ، الذي وصل فجأةً وأخذ يدورُ حولَ قائدِ المدرّعات، رافعاً سيفَهُ.

اضطرّ السيدُ مارني أن يدورَ على نفسِه لصدِّ هجماتِ فوغاسَ ولتقليدِ طريقتِه في القتالِ. ولكنَّ هذا الأخيرَ لم يتركْ له المجالَ فصاحَ قائلاً: «كان عليك أنَ تقول لي إنها مباراةُ عدوٍ وليستْ مبارزةً».

صاح فوغاسُ:

«رويدَك، وسترى ما يستطيعُ فعلَه جنديٌّ في جيشِ الإمبراطور العظيم» ثم وجّه له ضربةً جانبيةً كادت تخترقُ جسدَه. ردَّ قائدُ المدرعاتِ بضربةٍ مشابهةٍ تفاداها فوغاسُ بنزولِه إلى الأرض ثم عاد وامتطى جوادَه بسرعةٍ.

- إنّك تتصرفُ كتصرفِ الأولادِ عندما يلعبون! قال مارني.

- أنت تسخرُ من الجيشِ القديمِ، أجابَ فوغاسُ، هيا! دورُك الآنَ! إنها ضربةٌ جميلةٌ ولكنّها

أخطأتِ الهدفَ. لن أموتَ منها! خذها! خُذْها! خُذْها! والآن جاء دورُك! أنتَ تجيدُ الدفاعَ عن نفسِك. لكنني لن أدعَك تمرُّ هذا المساءَ تحت نافذة كليمانتين. خذْها! هذه على شرفِ كليمانتين! وعلى شرفي أنا! وعلى شرفِ جميعِ جنودِ الفوجِ الثالثِ والعشرينَ. خذْ هذه الطعنةَ أيضاً... وأخيراً! لقد أُصِبْتَ!

«إن دمكَ يجري يا سيدي! ماذا فعلْتُ؟ أيها الطبيبُ! إ أيها الطبيبُ تعال حالاً... تعالَ بين ذراعي يا سيدي! دعْني أحمِلُك! يا لي من حيوانٍ! أوليسَ جميعُ الجنودِ أخوةً! سامحني يا صديقي! وأنْتَ أيها الطبيب، قل لي بأنه لن يموتَ.

كان الدمُ يسيل بغزارةٍ. لكن الجرحَ كان طويلاً وليس عميقاً ولا يتطلبُ اندمالُه سوى بضعةِ أيام. نَقَلَ فوغاسُ بنفسه دي مارني حتى العربةِ ورافقَهُ إلى منزلِه ومدّده على فراشِه وعانَقَهُ ووعَدَه بأن

يكونَ صديقَه مدى الحياةِ. ولم يتركْه إلا بعدَ أن خلدَ للنومِ.

في تمامِ الساعةِ السادسةِ دعا جميعَ من شهدوا المبارزةَ إلى وليمةٍ كبيرةٍ في الفندقِ حيثُ شربَ من الخمرِ أكثرَ مما ينبغي.

من الثويلاري إلى شارنتون

في اليومِ التالي، وبعد أنِ أطمأنّ إلى صحةِ دي مارني، كتبَ إلى كلمانتين هذه الرسالةَ:

يا نورَ حياتي،

إنني أغادرُ هذه الأمكنةَ الشاهدةَ على حبِّنا، إلى العاصمةِ لمقابلةِ الإمبراطور الشابِ واستعادةِ رتبتي كعقيد. انتظري، وثقي بي، يا حبيبتي كليمانتين! احترسي من أجل حبيبك،

فكتور فوغاس.

لم تردَّ كليمانتين على هذه الرسالةِ. ولكن فوغاسَ استلمَ من أحد الأولادِ، قبل صعودِه إلى القطارِ، محفظةً جميلةً من الجلدِ الأحمرِ بداخلِها ستةُ

آلافِ فـرنـكٍ، وهـذه الـكلمـاتِ: «مـن قِبَـلِ كليمانتين».

عنـد وصـولِـه إلى باريسَ بحثَ عن خيـاطِ الإمبراطورِ ومُـزَيِّنِهِ وأوصى عـلى القبعةِ والثيـابِ التي كانت رائجةً سنة ١٨١٠.

قـالَ لـه أحـدُهم: «إن كنْتَ تـطلب ثـوبـاً للمسرحِ، فستكونُ راضياً»

أجـابَـه فـوغـاس: إعلمْ أنني عقيـدٌ في جيشِ الامبـراطـورِ العـظيمِ وأني أعلمُ تمـامـاً كيف أختـارُ ملابسي.. نسيجٌ انكليزي؟ يا للصاعقةِ! أريدُ جوخاً فرنسياً، مصنـوعاً في فـرنسا. فصّله بحيثُ يهتفُ كـلُّ من يلتقيني في الطريقِ: «هذا رجلٌ عسكري».

وقُدِّمَتْ له الخمـرةُ، في المطعم، بكـأسٍ بدت لـه صغيرةً جـداً بحيثُ تناولَ تبـاعاً محتـوى أكثرَ من عَشْـرِ كؤوس. ومَعَ ذلـك، لم يكنْ ثَمِلاً عنـدما غـادر

المطعمَ. كلُّ ما في الأمرِ أنه مرحٌ.

لم ينعمْ بنومٍ هادىءٍ تلكَ الليلةَ لأنّـه كان يعِـدُّ ما سيقولُه للإمبراطورِ. أشعلَ المصباحَ وأطفأه عشرين مرة. ولم يجدْ متسعـاً من الوقتِ للتفكـيرِ بكليمانتـين. وعندَ الظهرِ سُلِّمَتْ إليه الثيابُ التي أوصى عليها.

ـ «فلأرتدِ ثيابي، قال فوغاسُ، فـربما كـان هذا الشابُ خارجَ منزلِه. في هذه الحالةِ سأتـركُ له إسمي وانتظر دَعْوةً منه».

دخلَ إلى أحدِ المطاعمِ وأكلَ ضلعـينِ من لحمِ البقرِ، وكمِّيَةً من الخبزِ وقطعةَ جبنٍ وشربَ زجـاجتين من الخمرِ. واستمرَّ في شـربِ القهوةِ والمرطّباتِ حتى الساعةِ الثانيةِ بعد الظهرِ وهو الوقتُ المحدّد لزيارةِ قصرِ الثويلاري. عند وصولِه صاحَ به الحارسُ:

ـ «مَنْ تريدُ أيها السيدُ»

- «الإمبراطورَ»
- «هل تحملُ رسالةَ توصية»
- «لا يحتاجُ العقيدُ فوغاسُ إلى رسالةِ توصيةٍ. فإذا كنتَ تُصِرُّ عليها، فما عليكَ إلا أن تطلبَها من ذاك الذي فوقَ ساحةِ الفندوم».

- «هل تعرّفْتَ على نابوليونَ الأولِ ؟»
- «نعمْ، وتكلّمتُ معه، كما أتكلمُ معك»
- «صحيحٌ؟ إذاً كمْ عمرُك؟»
- «سبعون سنةً بالنسبةِ إليك، وأربعٌ وعشرون بالنسبة لي»

رَفَعَ الحارسُ رأسَه إلى السماءِ وهو يتمتمُ:
«رجلٌ آخرُ! إنه الرابعُ خلالَ هذا الأسبوعِ».

عندئذ، تقدّمَ من فوغاسَ، شابٌّ قصيرٌ أسودُ يدخّنُ الغليونَ في باحةِ القصر، وقالَ له، وهو يضعُ يدَه على ذراعِه:

«هل تريدُ مقابلةَ الإمبراطورِ، يا صديقي العزيزَ»؟
- «لقد سمعتني أقولُ ذلك، أيها الشابُّ».
- «حسناً! ستقابلُه اليومَ. لكنَّ الإمبراطور خارجَ المدينةِ. أتريدُ أن أقودَكَ إليهِ؟ أنظرْ! لقد أرسلوا لك عربةً. هيا، يا صديقي العزيز، أصعدْ. وكُنْ مطمئناً». أخذوه، دون أن يدري، إلى طبيبٍ فأشارَ عليهم بحجزِه. حصلَ كلُّ ذلك بمنتهى اللطفِ والتهذيب ودونَ أنْ تبدرَ منهم كلمةٌ تُنَبِّهُ العقيدَ إلى ما ينتظرُه. لكنّه لاحظَ فقط أن هذه الإجراءاتِ طويلةٌ فاستعدَّ أن يشكوَ أمرَهُ للإمبراطورِ. وعند وصول عربته. إلى قلعةِ الباستيل مرّتْ بالقربِ منها عربةٌ جميلةٌ جداً، يجرُها جوادان. والتفت من داخِلها رجلٌ ضخمٌ أشهبُ اللحيةِ وصاحَ:

- «فوغاسُ!»

وهنا، مَنْ كانَ يستطيع إيقافَ فوغاسَ؟ قفزَ

بسرعةٍ مذهلةٍ من عربتِهِ إلى العربـةِ الثانيـة وارتمى بين ذراعي الـرجلِ الضخمِ الأشهبِ اللحيـةِ، تاركـاً في الشـارعِ الشرطيَّ الـذي يرافقُـه، والذي لم يتسعْ له الوقتُ لمشاهـدةِ أيِّ شيءٍ، فأخـذَ يسألُ المـارةَ عما إذا كانوا التقوا برجلٍ مجنونٍ.

فوغاسُ ونابوليونُ الثالثُ

كانَ العجوزُ يرددُّ، وهو يضمُّ فوغاسَ بين ذراعيهِ:

«هـذا أنتَ! أرى أنـك لم تتعـرَّفْ إليَّ: أنـا لوبلان، رفيقُك في الحملةِ الروسيةِ.»

ـ مستحيلٌ! انت لوبلان الصغيرُ؟

ـ نعمْ، أنا الذي تمكّنَ من طبخِ جوادِكِ.

ـ كيفَ، هذا أنتَ؟ أنتَ الذي صنعَ لي حذاءً من جلدِ هـذا الحيوانِ المسكـين! لم أنسَ كيف أنقذْتَ حياتي مراتٍ عديدةً. دعْني أعانقُك أيضاً! لقد تعرّفتُ عليكَ الآنَ. لكنّكَ تغيّرتَ بالتأكيدِ.

ـ لأنني عِشْتُ حياتي!

ـ اتعرفُ قصتي إذاً؟

ـ سمعْتُ بها البارحةَ من العالمِ نَفسِه الذي أعادَكَ إلى الحياةِ. فكتبْتُ إليك عارضاً عليكِ منزلي. ولكن يبدو أن رسالتي لا تزالُ في طريقِها إلى فونتين بلو.

ـ شكراً! إنك صديقٌ وفيٌّ! آهٍ، يا صديقي القديمَ، كمْ من المصائبِ حَصَلَتْ منذُ عبورِ نهر البرازينا! هل علمْتَ بها؟

ـ كيف لا! استطعتُ أخيراً أن اشتركَ في حروبِ الجزائرِ وايطاليا وشبهِ جزيرةِ القرمِ وأصبحتُ الآنَ مارشالَ فرنسا ودوقَ سولفرينو.

صاحَ فوغاسُ:

ـ يا إلهي! هذا خبرٌ جيدٌ، وأنا سعيدٌ لسماعِهِ مع أنّه من النادرِ أن ترى جندياً يسعدُ بترفيعِ صديقٍ. أما أنا، فأقولُ لك من كلِّ قلبي: نِعْمَ ما حدثَ!

ـ شكراً! ولنتكلمْ عنك. أينَ كنتَ ذاهباً عندما التقيْتُ بك؟

ـ لمقابلةِ الإمبراطور.

ـ وأنا أيضاً، ولكنْ، أين كنْتَ تبحثُ عنه؟

ـ لا أدري، كانوا يرافقونني.

ـ في هذا الاتجاهِ؟

ـ نعم

ـ أخبرْني قصّتَك.

استمعَ إليه المرشالُ وهو يحرصُ على ألا يتبسمَ ثم قالَ:

«لقد اخطأوا، فالإمبراطورُ في قصرِ التويلري، وأنا على موعدٍ معه. تعالَ معي، لأقدّمكَ إليه،»

ـ يا إلهي! إن قلبي يخفقُ، يا عزيزي لابلان، لمجردِ التفكيرِ بأنني ساقابلُ هذا الشابَ. هل هو

طيبٌ؟ هل نستطيعُ الاتكالَ عليه؟ هل يشبهُ الآخرَ؟

ـ ستشاهدُه. انتظر هنا.

عند عودتِهِ إلى الفندقِ، بعد ساعتين، كتب فوغاسُ إلى كليمانتين:

«في باريسَ، ماذا أقولُ؟ يا للسَماءِ! في ٢١ آب ١٨٥٩.

يا نورَ عيني،

أنا نشوانُ من السعادةِ والوفاءِ. اجتمعْتُ به وكلّمتُهُ فصافحني ودعاني للجلوس. إنه امبراطورٌ وسيصبحُ سيدَ الدنيا. لقد أنعمَ عليَّ بوسامٍ. اصطحبني إلى هنالك صديقٌ قديمٌ هو لابلان الصغيرُ الذي يحمل حالياً لقبَ دوق ومارشال فرنسا. بالنسبة إلى الترقيةِ، يجبُ عدمُ التفكير بذلك الآنَ. فالقانونُ العسكريُّ يقضي بإبقائي في رتبتي الأصليةِ بسببِ وقوعي في الأسرِ وَوَضْعيَ في صندوقٍ. لكنني سأصبحُ

جنرالاً قبلَ مضي ثلاثةِ أشهرٍ. وهذا أكيدٌ لأنه وعدني بذلك. يا للرجل! إنه الهٌ على الأرضِ! أرادَ أن يعطيَني مالاً من حسابِهِ الخاصِ فرفضْتُ لأنّ لي ديناً في دانتزغ إذا دُفِعَ لي أصبحُ غنياً، وإذا لم يُدْفَعْ فإن لي راتبي.

بيّنَ لي عندئذٍ، أنه، كان عليهم أن يعيدوني من أسري سنة ١٨١٥. وبما أنهم لم يعيدوني فإن لي بذمَتِهم كافةَ رواتبي. كما أكّدَ لي بأنني سأحصلُ على جميعِ تعويضاتي.

آهٍ يا حبيبتي كليمانتين! لقد كان الإمبراطورُ سعيداً للإجتماع بضابطٍ مثلي يعرفُ حقَّ المعرفةِ ما هي الحروبُ الكبرى، قلتُ له بأنَّ التوقيعَ على معاهداتِ السلامِ يجري في العواصمِ وأن عليه أن يستعيدَ حدودَنا الطبيعية في أوروبةَ لكنَّ الإمبراطورَ لم يُجِبْ بشيء. هل تعتقدين أنه ليس من رأيي؟ إن ذلك يقتلُني يا كليمانتين.

كان مسروراً أيضاً لمصافحتي مرّةً ثانيةً حيثُ قال: «أيها العقيدُ! لا بأسَ أن تبقى بهذه الرتبةِ بانتظارِ ترفيعكَ لرتبةِ جزالٍ.» آه يا كليمانتين! سأتناولُ طعامَ العشاءِ، مع لابلان الطيبِ، ستكونين سعيدةً، وانا سأصبحُ عظيماً! سأسافرُ إلى دانتزغ صباحَ يومِ غدٍ. إن المالَ لا يعني لي شيئاً ولكنني أريدُك أن تصبحي غنيةً.

قبلةٌ حلوةٌ على جبينك الناصعِ البياضِ

فكتور فوغاس.

نقولا مايزر، أحدُ كبارِ التجار في دانتزغ، استقبلَ شخصاً كان يفضلُ ألا يتعرفَ إليه.

جمعَ ابنُ أخ الاستاذ مايزر، ثروةً كبيرةً بلغَتْ عشراتِ الملايين.. ولكنْ كيفَ حصلَ ذلك؟ بنفسِ الأساليبِ التي تُمكنُ أياً كانَ من الغنى السريع: إقراضُ مبالغ صغيرةٍ بفوائدَ كبيرةٍ؟ تخزينُ كمياتٍ كبيرةٍ من القمحِ قبلَ مواسمِ القحطِ، شراءُ أراضٍ بأثمانٍ بخسةٍ وبيعُها بأثمانٍ باهظةٍ إلى بعضِ الحكوماتِ. أودعَ مالَهُ في مصارفِ دانتزغ وبرلين وفيانا وباريس وهو يتمتّعُ بسمعةٍ حسنةٍ لديها جميعاً. إنه ضخمُ الجثةِ، سمينٌ وسعيدٌ، أما زوجتُه، فإنّ لها أنفاً طويلاً جداً، عظاماً ناتئةً، ولكنها تجيدُ إعدادَ الحلوياتِ، يتجاذبانِ الحديثَ بصراحةٍ ولا يخفيانِ

افكارَهما الشريرةَ. إنهما يرميانِ في الشارعِ ، كلَّ سنةٍ، خمسةَ أو ستةَ آلافٍ من عائلاتِ العمالِ الذين يعجزون عن تسديدِ ما عليهم من ديونٍ. ولكن هذين العجوزينِ اللذين لهما من العمرِ خمسٌ وستون وتسعٌ وستون سنة، يتناولانِ أسوأ الأطعمةِ، ومعَ ذلك لم تَنقطعِ السيدةُ مايزر عن توجيهِ أحلى التحياتِ لزوجِها، قبلَ الذهابِ إلى النوم.

عندما كان جسدُ فوغاسَ في منزلِها، كانت تسخرُ من زوجِها وتسألُه: بماذا تفكِّرُ؟ لقد كنْتَ تركلُني برجلِك طولَ الليلِ، فلنقذفْ هذا الفرنسيَ اللعينَ إلى النارِ، لقد عانَيْنا الكثيرَ لمنعِ إعادةِ الحياةِ إليه. لنبعِ الصندوقَ. إنه يساوي ألفَ فرنكٍ، كما أنني بحاجةٍ للكفنِ الذي يلتفُّ به.

لكن نقولا مايزر فضّلَ بيعَ الصندوقِ مَعَ من فيه دفعةً واحدةً. وعندما كانَ في برلينَ ذاتَ يومٍ، كم كانت دهشتُه كبيرةً وهو يقفُ أمامَ بائعِ صحفٍ

ويقولُ: من هو هذا الشابُ؟ لقد سبقَ لي وشاهدتُه. إنه هو!... لكن ذلك مستحيلٌ فقد أحرقْتُ جميعَ أوراقِ عمي ولم يعدْ بإمكانِ أحدٍ، حالياً، إحياءُ الموتى. فلنذهبْ! إذ لا فائدةَ من السؤالِ عمّنْ يكونُ.

استأنفَ سيرَهُ وهو يحدِّثُ نفسَه: «تعودُ الصورةُ إلى سنة ١٨١٣، ويرتدي هذا الرجلُ الثيابَ التي كانت رائجةً في زمنِ نابوليونَ الأولِ!». وعندما وصلَ إلى المحطةِ أخذَ مكانَه في قطارِ دانتزغ ونامَ. بماذا كان يحلمُ؟ يستحيلُ على أيٍّ كان أن يعرفَ ذلك، ولكنْ فجأةً، شعرَ بيدينِ تجذبانِه من رجليه كما في أحلامِه السابقةِ! ففتح عينيهِ ورأى الرجلَ الذي شاهده في الصورةِ يمر أمامَه وهو يرتدي الثيابَ ذاتَها. جحظَتْ عيناه وأطلَقَ صَيحةً عاليةً وارتمى أرضاً تحت مقاعدِ الحافلةِ وأرجلِ المسافرين.

أعادَتْهُ بعضُ الرفساتِ إلى رشدِهِ فنهضَ كيفما

كان ونظرَ حولَه، وتأكَّدَ من جيرانِهِ أنهم لم يشاهدوا أحداً. نزلَ عندَ أوّلِ محطةٍ ليتناولَ بعضَ الطعامِ. وبينما كان يتناولُ حساءً ساخناً أمرَّ بقربهِ شخصٌ دونَ أن ينتبهَ إليه، فوقَعَ القَدَحُ من يديه على سروالِه فأُصيبَ بحروقٍ. أسرَعَ في الصعودِ إلى القطارِ تاركاً خطاً رفيعاً من الماءِ ينسابُ على ساقيه. حَدَثَ له كلُّ ذلك لمجردِ ظنِّهِ أنه شاهدَ وَجْهَ العقيدِ فوغاسَ المرعبِ.

عَرَضَ الأمرَ على جيرانِه فضحكوا عليه. إنه لأمرٌ صعبٌ بالنسبةِ لرجلٍ ضخمٍ وغنيٍّ، أن يكونَ أضحوكةً للفقراءِ. لذلك كفَّ عن الحراكِ حتى وصلَ إلى دانتزغَ. كانت رحلةً مزعجةً ومع ذلك وصلَ أخيراً وذهبَ لإحضارِ حقيبتِه. ولم يكدْ يلمسُها حتى جذبَها أحدُهم. إنه فوغاسُ! وقعَ مايزرُ على الأرضِ، فاقدَ الوعي.

وبعدَ أن عادَ إلى رشدِه رجعَ إلى منزلِهِ وقالت

له زوجتُه:

«حصلت لي قصةٌ في غيابكِ. لقد كتبَتْ لنا شرطةُ برلينَ لتسألَنا عما إذا كان عمُّنا تركَ لنا مومياءَ، وماذا فعلْنا بها؟ ما دخلُ الشرطةِ بشؤوننا الخاصةِ؟

همَّ مايزرُ بالكلامِ؛ لكن زوجتَه أضافت:

ـ لنتكلَّمْ في الأمورِ المالية. جاءَ لزيارتي مديرُ المصرفِ ومعه المليونا فرنكٍ التي طلبتَها منه قطعاً ذهبيةً. ولكنَّ الارتباكَ كان بادياً عليه. فهو يفضلُ أن يعطيَك حوالةً بالمبلغِ على لندنَ أو برلينَ.

ـ أليس من أخبار اخرى؟

ـ أجلْ لقد انتحرَ شميدت الذي كان مديناً لنا بعشرةِ آلافِ فرنكٍ، لقد طلبَ تأجيلَ الدفعِ مدةَ ثلاثةِ أشهرٍ. ولما رفضْتُ طلبَه شَنَقَ هذا الأحمقُ نفْسَهُ.

ـ وماذا فعلوا بالحبلِ؟ قد احتاجُ إليه. إنني افكرُ بفوغاسَ.

- ألم تتخلصْ بعدُ من الأفكارِ السوداءِ؟ تعالَ نتناولْ طعامَ العشاءِ يا عزيزي.

تناولا طعامَ العشاءِ وأيُّ عشاءٍ!! أكل مايزرُ باشمئزازٍ. كان يشعرُ بأن أمراً ما سيحدثُ. ولم يكنْ على خطأٍ، فقد اهتزَّ البابُ والمنزلُ معاً بفعلِ ضربةِ مِطرقةٍ هائلةٍ، ونهضَ نقولا مايزر وهو شاحبُ اللونِ.

- لا تقلقْ، قالت زوجتُهُ، إنه بالطبعِ مديرُ المصرفِ وقد عادَ ليحدثنا بالموضوعِ فهو مستعدٌ. . . . .

- إنه ليس المديرَ، وليست قضيَّةَ مالٍ إنه هو. . .

وهنا دخلَتْ الخادمةُ مسرعةً وهي تقول:

«سيدي، سيدتي، إنه الفرنسي الذي كان في الصندوقِ. يا الهي!،»

قال فوغاسُ وهو يمشي الهوينى وراءَ الخادمةِ:

«أيها الناسُ الطيبونَ! عندي قضيةٌ صغيرة لا بدَّ من تسويتِها، أنتمْ على عجلةٍ من أمرِكم وأنا كذلك، لم تتناولوا طعامَكم بعدُ وأنا كذلك!!»

أخرج مايزرُ مسدساً كان في جيبِهِ وصاح: «إلى الوراءِ أيتها المومياءُ!» واطلق النارَ. لكن الرصاصة لم تنطلِقْ، حاولَ إطلاقَ باقي الرصاصاتِ ولكنها بقيت في مكانِها.

جلس العقيدُ على كرسيٍّ وسألَ ببساطة: «ما هذهِ اللعبةُ التي تلعبُها؟ أهكذا تستقبلُ الاصدقاءَ؟»

ركعَ مايزر وزوجتُه عند قدمي فوغاس. ثم قالَ مايزر:

- «ماذا تريدُ أيُّها الشبحُ؟ بماذا تأمرُ؟ أتريدُ أن أتوسَل إليك؟»

- أيها الأحمقُ، قال فوغاسُ وهو يركلُه برجلِه،

أنا لستُ شَبَحاً. وقد جئتُ فقط لاستعيدَ المالَ الذي سرقتَهُ مني».

وقفتِ السيدةُ مايزر، بينما بقي زوجُها ممدَداً على الأرضِ، وهدّدَتِ الغريبَ بأظافرِها وهي تصيحُ: «تطلبُ مالاً؟ مَنْ أنتَ لتدخلَ إلى منزلِنا عنوة؟ إن هذا مخالفٌ للقانونِ. وعندنا قضاءٌ في دانتزغ. إنهضْ، يا مايزرُ، إنه مجردُ انسانٍ. وانتَ، أيها العائدُ، أخرجْ من هنا وبسرعةٍ...»

لم يتحركِ العقيدُ، فكأنه قُدَّ من صخرٍ. ثم قال:

ـ «يجبُ قطعُ السنةِ جميعِ النساءِ إجلسي أيتها العجوزُ وأزيحي اظافرَكِ من أمامِ وجهي، وأنت أيها الرجلُ الضخمُ، اجلسْ على كرسيِّكَ واصغِ إلي»

أوضحَ فوغاسُ موقفَه، ثم أمسكَ بمايزرَ من أحدِ ازرارِ سترتِهِ وأضافَ:

«انتَ تجهلُ كيف تلقمُ مسدساً أو تستخدمُ سيفاً، أنتَ لا تنفعُ لشيءٍ. إنك مدينٌ لي بأربعةِ ملايين كما بيّنتُ لك. أعطني منها مليونين لولدي فعندي ما يكفيني وزوجتي».

ـ «حسناً، صاح مايزرُ، إنني أتعهد بتربيةِ الصغيرِ»

ـ «أحضر المليونين بسرعةٍ لاعطيك إيصالاً بالمبلغِ. إنني، كما سبقَ وقلتُ، لم اتناولْ طعامَ العشاءِ، وأشعرُ بعطشٍ شديدٍ.»

ـ «أَعْطِهِ المليونين»! قالت فجأت، السيدة مايزر.

ـ هل جُنِنْتِ؟؟

ـ لا تَخَفْ.

ـ لن استطيعَ ذلك.

ـ يا اللهُ! ما أغبى الرجالَ! سيدي العقيدَ

فوغاس. أنت ترى أننا نفعلُ كلَّ ما تريدُه. خذْ أولاً قليلاً من مرطبات بلادنا. إنها ممتازةٌ.

- إنّني أعرفُها. فقد سبقَ وأتيتُ إلى هنا.

-سيوقِّعُ لك زوجي حوالةً على مصرف دانتزغ.

عندئذٍ قالَ مايزر المسكينُ: «لكنْ...»

ومعَ ذلك وقّعَ بأمرٍ مِنْ زوجتِه.

عندئذ قال فوغاسُ:

«ضع يدك بيدي أيها الحيوانُ العجوزُ. إنني لستُ معتاداً على مصافحةِ أمثالِك؛ ولكنك لسْتَ شريراً على قدرِ ما قيلَ لي»

- اذاً، تناولْ طعامَ العشاءِ معنا، قالت السيدة مايزر، إن الأكلَ على الطاولةِ، كما ترى.

بكلِّ سرورٍ، أيتها العجوزُ! يبدو أن خمرتَكم جيدةٌ

طوى العقيدُ حوالةَ مايزر، ووضعها بدقةٍ، داخلَ رزمةٍ كبيرةٍ من الأوراقِ النقديةِ كان يحملُها في المحفظةِ الصغيرةِ التي أهدته إياها حبيبتُه كليمانتين. وكانت الساعةُ آنذاك، الحاديةَ عشْرةَ. عندَ الساعةِ الحاديةَ عشرةَ والنصفِ بدا العالَمُ، لفوغاسَ، جميلاً جداً، عند منتصفِ الليلِ توثقتْ عرى الصداقةِ بينه وبين السيد مايزر وزوجتِه. في الساعة الثانية عشْرَة والربعِ، عانقهما. في الثانيةَ عشرةَ والنصفِ، بكى عندما علم أن الاستاذَ الطيبَ مايزر قد تُوفيّ في هذا المنزلِ. في الساعةِ الواحدةِ إلا ربعاً، تحدّثَ عن ابنهِ الذي سيجعلُه غنياً، وعن خطيبته التي تنتظرُه.

في الساعةِ الواحدةِ، ذهبت السيدةُ مايزرُ بنفسِها، إلى القبو، واحضرتْ له زجاجةً من الخمرِ عمرُها مئةُ سنةٍ. في الساعةِ الواحدةِ والنصفِ، وبعد أن افرغَ فوغاسُ الزجاجةَ، حاولَ أن يرويَ لهما حملَة روسيا، ولكنه تدحرج تحت الطاولةِ، فاقدَ الوعي.

عندئذٍ قالتِ السيدةُ مايزر:

«هـذا ما كنتُ انتـظرُه، أيهـا الأحمقُ! هـلْ من المعقولِ إعادةُ إنسانٍ إلى الحياةِ؟ إنه ليسَ إنساناً، هذا الذي تراه، إنه سارقٌ، والسارقُ يُرمى في الماء. البئرُ العموميةُ قريبةٌ من هنا، ساعدْني.».

وبعد عَشْر دقائقَ، كان شيءٌ ثقيلٌ يُلقى في الماءِ، من ارتفاعِ خمسةَ عشرَ متراً. ثم عادَ السيدُ والسيدةُ مايزرُ إلى منزلِهما ونعما بنوم عميق.

لم يستيقظا إلا في الساعةِ العاشرةِ صباحاً.
وبينما كانا يتناولانِ القهوةَ مع الحليبِ ومعَ بعضِ قطعِ خبزٍ صغيرةٍ، دخلَ حاكمُ المصرفِ وقال لهما:

«إنني اشكرُكما لموافقتكما على تحويلِ المالِ على أحَدِ مصارفِ برلينَ، بدلاً من القطعِ الذهبيةِ. صحيحٌ أن هذا الفرنسيَ الشابَ، الذي ارسلتماه

إلي، يبدو غريبَ الأطوارِ، إلا انه يتمتعُ بروح مرحةٍ وقلبٍ طيبٍ....

ولكنْ ما بكما؟ أيتها الخادمةُ، استدعي الطبيبَ بسرعةٍ. لقد أُغْمِيَ على مخدوميكِ عندما كنتُ أتكلمُ معهما..»

ما العملُ بمليونين مزعجين؟

قبلَ قدومِه إلى دانتزغ، مرَّ فوغاسُ بمدينةِ نانسي، وتبيّنَ له أن فيها عشرين عائلةَ بيشون، وليس واحدةً فقط، وأن أحداً لا يتذكرُ حبيبتَه كليمانتين. سافر العقيدُ، عندئذٍ، إلى برلينَ، حيثُ استقبلَهُ الملكُ شخصياً وأمر بإعطائِه تعويضاً، قدرُه مئتان وخمسون ألف فرنك، كانتِ الحكومةُ الفرنسيةُ قد طلبته له بصفتِهِ أسيرَ حربٍ لم يُفْرَجْ عنه. تعرَّفَ هناك على فتاة نمساويةٍ جميلةٍ وروى لها أخبارَ ضباطِ الإمبراطوريةِ.

في صباحِ اليومِ التالي سافرَ إلى دانتزغ، وفي مساءِ ذلك اليومِ وقعَ في البئرِ، وهذه قصتُه كما رواها:

- «إنني أتساءَلُ كيف حدثَ لي ذلك؟ كنتُ قد وَدَّعْتُ إبنَ أخِ مايزر العظيمِ وهو رجلٌ طيببٌ قدّمَ لي عشاءً فاخراً. . . واستيقظْتُ فجأةً لأجدَ نفسي في مياهٍ باردةٍ. أخذت أسبحُ. ثم تلمَستْ يداي فجأةً حبلاً غليظاً، تمكنتُ بواسطتِه من الصعودِ بسهولةٍ، إلى خارجِ البئرِ. عدتُ إلى الفندقِ دون أن أفقدَ حتى قبعتي. وسررت عندما تأكد لي أن المليونين لم يبتلا بالماءِ. فقد ساعدتِ المحفظةُ والأوراقُ النقديةُ على عدمِ تسرّبِ الماءِ إلى الحوالةِ».

وعندما استيقظَ في الصباحِ، سُلِّمَتْ إليه رسالةٌ من شرطةِ نانسي تقول: «كليمانتينُ بيشون. ثماني عشْرةَ سنةً. والدُها أوغست بيشون صاحبُ فندقٍ. والدتُها ليوني فرانسيلو ـ تزوجت في هذه المدينةِ في ١١ كانون الثاني سنة ١٨١٤ من السيد لويس انطوان لانجيفين. . .

إسم لانجيفين نادرٌ في هذه المنطقةِ. ولا نعرفُ

سوى إسمين: أحدُهما فكتور لانجيفين وهو قاض ، والآخر لانجيفين بيار الملقبُ ببيارو وهو صاحبُ مطحنةٍ في فار جافيل بالقربِ من ديوز» .

وثبَ فوغاسُ حتى كادَ رأسُه يلامِسُ السقفَ وهو يصيحُ :

«لي ابنٌ» .

ثم نادى المسؤولَ عن الفندق وقال له :

أعطني قائمةً بالحسابِ وأرسلْ حقيبتي إلى سكةِ الحديدِ. احجزْ لي بطاقةَ سفرٍ إلى نانسي، لن أتوقفَ في الطريق. وإليكَ مبلغَ ألفِ فرنكٍ لتشربَ نخبَ صحَّةِ إبني. إنه يحملُ اسمَ فكتور كوالدِه، وهو قاضٍ في المحكمةِ. كنتُ أفضلُ أن يكونَ جندياً. ولكنْ ليس باليدِ حيلةٌ. خذْني إلى المصرفِ أولاً فعليَّ أن أحضرَ بعضَ الملايينِ التي تخصُهُ.

عندما عادَ من المصرفِ، بعدَ أن عانقَ مديرَه،

وضَع الحوالةَ المسحوبةَ على برلينَ في غلافٍ كَتَبَ عليه عنوانَ السيدِ فكتور لانجيفين معَ رسالةٍ طويلةٍ تنتهي بالعباراتِ التالية :

«محبةُ الوالد تساوي كلَّ مالِ العالم»

فكتور فوغاس .

كان منزعجاً، وهو في القطارِ، لأنه فكّرَ بكليمانتين التي لم تنتظرْ عودتَه. إلا أنه قالَ في نفسه : «على الأقلِ لن أكونَ مرغماً على الزواجِ من إمرأةٍ عجوزٍ، بينما تنتظرني شابةٌ جميلةٌ في فونتين بلو. فضلاً عن ذلك، إن إبني يحملُ إسماً كبيراً. صحيحٌ أنه ليس بمنزلةِ فوغاسَ ، لكن لا بأسَ بعائلةِ لانجيفين» .

وصلَ إلى نانسي في الساعةِ السادسةِ من مساء الثاني من أيلولَ. كان قلبُه يخفقُ. ولاستعادةِ قواه، تناولَ عشاءً طيباً.

ـ «السيد فكتور لانجيفين، أجابَه صاحبُ

الفندق، هو رجلٌ طيبٌ وشابٌ وقد تزوجَ منذ ست سنواتٍ وهو الآنَ أبٌ لصبيّ وبنتٍ»

«أنا جَدُّه»! صاحَ فوغاس.

وكان يشربُ كأساً من المرطباتِ عندما صاحَ مدير الفندق:

إنتبه! ها هو يَمُرُّ أمامنا!

أسرعَ فوغاسُ. كان الوقتُ ليلاً ومع ذلك أبصرَ رجلاً فاندفعَ نحوه وعانَقَهُ.. فصرخَ الرجلُ، وهو يُطْلِقُ ساقيه للريحِ «مجنونٌ». في اليومِ التالي قصدَ فوغاسُ منزلَ القاضي وهو يحملُ الملبّسَ لحفيديه. فتحتِ الخادمةُ البابَ وسألتْهُ عما إذا كان هو الشخصُ الذي ينتظرهُ سيدُها.

ـ أجابَ: «نعم، هل وَصَلَتْ رسالتي»

ـ «لقد وَصَلَتْ، يا سيدي، صباحَ أمسِ. أين حقائبك»؟

ـ «تركتُها في الفندقِ»

ـ «لن يكونَ سيدي مسروراً من تصرفِك هذا. فقد أَعْدَدْتُ غرفَتكَ في الطابقِ الأعلى»

ـ «شكراً! شكراً! ومن أجلِ هذا الخبرِ المفرحِ، إليكِ ورقةَ الألفِ فرنكٍ»

ـ «هذا مستحيلٌ، يا سيدي»!

ـ «لكنْ أينَ سيدُكِ؟. أريدُ أن أراه وأعانقه وأقولَ له..»

ـ «إنه يرتدي ثيابَه، وسيدتي أيضاً».

ـ «والأولادُ! وأحفادي الأحباءُ»!

ـ «إذا كنتَ تُحِبُّ أن تشاهدَهم فهم هنالك في غرفةِ الطعامِ».

ـ «إذا كنتُ أحب؟! افتحي بسرعةٍ! الصبيُّ يشبهُني!» ثم قالَ للأولاد وهو يُفْرِغُ جيوبَه من الملبسِ: «خذوا! خذوا!»

ووثبَ الأولادُ إلى عُنُقِهِ وقبّلوه.

- «إنه نداءُ الطبيعة»! صاحَ فوغاسٌ.

وفي هــذه اللحــظةِ ظهــرَ السيــدُ والسيــدةُ لانجيفـين. وقـالَ القـاضي وهـو يصـافحُ فـوغـاسَ ببرودة: «اعتبرْ نفسَك في منزلِك. لكنَّ المهمَ ألا تقومَ بأية مبارزةٍ هنا».

أجاب فوغاسُ دهِشاً وهو لا يتجرأُ على الكلامِ أمامَ الأولادِ!

«إنـكَ تعلمُ إذاً يا ولـدُ.. أودُّ الآنَ أن تقـدمَني إلى السيدةِ والدتِك».

«كيفَ لـكَ أن تنسى، أيها السيـدُ، أن والـدتي المسكينـةَ قد تُـوفيَتْ؟ لقـد خسـرْنـاهـا منذ ثـلاثِ سنواتٍ».

أجهش فوغاس بالبكاءِ وهو يقولُ:

- «عفـواً! لم أكنْ أعلمُ ذلك. يـا لها من زوجـةٍ مسكينةٍ!»

- إنني لا أفهمُ مـا تقولُ. فهــل كنْتَ تعـرفُ والدتي؟»

- «أيها الولدُ الشقي».
- «لقد أعلمْنا أهلُكَ بوفاتِها».
- «من هم أهلي؟».
- «والدُك ووالدتُك»
- «ماذا تقولُ؟ لقد تُوُفِّيَتْ والدتي سنة ١٧٨٩»
- «ماذا؟ أليستْ والدتُكَ من أرسلَكَ إلى هنا؟»
- «لم يأتِ بي إلى هنا سوى قلبِ الوالدِ»
- «قلب الـوالدِ؟ إذاً أنت لسْتَ الـذي لم يُحْسِنِ التصرفَ في باريسَ والذي جاءَ ليعملَ هنا».

- «أنا فوغاسُ»! صاحَ العقيد.
- «وبعدُ»؟
- «أنت بلا قلبٍ، إذاً»

عندها قال القاضي:

«خذي الأولادَ، يا ماري، وأنتَ، أيها السيدُ،

إجلسْ واشرحْ لي قصتَك»:

أصغى القاضي إليه، ثم قال:

«قرأتُ بعضَ الشيء عنك في الصحفِ، يا سيدي. لقد أخطأتَ. فعمري أربعٌ وثلاثون سنةً وليس ستا وأربعين. لا تُدْعى والدتي كليمانتين بيشون إنما ماري كارتال. محلُ ولادتها فان وليس نانسي وكان عمرُها سبعَ سنواتٍ في السنة ١٨١٣. أتشرفُ بمعرفتك.

«أنت لست ولدي إذاً، أجاب فوغاسُ بغضب، حسناً! إنهم قلةٌ، الذين يحملُ والدُهم اسم فوغاس. أما الأبناء الذين يحملون اسمَ لانجيفين فهمْ كثرٌ. أعرِفُ حينَ أجدُ الشخصَ الذي يحملُ إسم بيار ويشبهُ أباهْ تماماً. لكنْ، عفواً. عندما تطردون الناسَ من منازِلكُمْ، عليكم، على الأقلِ أن تعيدوا لهم ما يخصُّهم.

- إنني لا أمنعُك من التقاطِ حباتِ الملبس التي

نثرَها أولادي على الأرضِ.

- أنا لا أتكلمُ عن هذا. أينَ ملاييني أيها السيدُ.

- أيةُ ملايينَ؟

- الملايينُ التي تخصُّ إبن كليمانتين، أي بيار لانجيفين الملقب ببيارو وهو صاحبُ الطاحونةِ في فارجافيل.

- ليس عندي ملايينُ لك أو لغيرِك.

- لقد أرسلتُها لك بنفسي بالبريدِ أيها الحيوانُ!

- قد تكونُ أرسلتها لي فعلاً، ولكنني لم أستِلمْها.

- إذاً! دافعْ عن نفسِك.

لحسنِ الحظِ دخلتِ الخادمةُ في هذه اللحظة وهي تحملُ رسالتين. تعرّفَ فوغاسُ على رسالتِه من طابَعِ بريد برلينَ. فمزّق الغلافَ وأبرزَ الحوالةَ وقال:

«هذه هي الملايينُ التي كنتُ سأعطيك إياها لـو رضيتَ أن تكـونَ إبني. لقـد فـاتَ الأوان، الآن، فغريزتي تدعوني للذهابِ إلى فرجافيل، وداعاً.

في الـرابـعِ من أيلولَ، كـان بيـار لانجيفـين، صاحبُ الطاحونِ في فارجـافيل، يحتفـلُ بزواجِ ابنـه الثاني، كادي لانجيفين. كانتْ عـائلةُ الطحـانِ كبيرة وثريةً وتتألفُ من الجدِّ وهو عجوزٌ جميلٌ، قويُ البنية، يتناولُ أربعَ وجباتٍ من الطعامِ يومياً ويتلهى، عندما يتعب، بشربِ الخمرِ، ومن الجَدَّةِ كاتـرينَ التي كانتْ جميلةً فيـما مضى، وأصبحَتْ صماءَ حـاليـاً، ومن بيار لانجيفين الملقبِ ببيارو وهـو ضخمُ الجثةِ وعنـدَه ستةُ صبيانٍ ضخامِ الجسم أقوياءَ.

وهو رجلُ أعمالٍ ناجحٌ حالياً. وكان قد سافـرَ إلى أميركا في مـطلعِ شبابـه وعادَ منهـا صفرَ اليـدين. ولذلك لا يزالُ يغضبُ بسهولة، عندما يحدثُهُ أحدُهم عن الملايينِ التي عادَ بها من أميركا، وكأنه عـادَ أمسِ

من سفرِه.

في الرابعِ من أيلولَ، وبينما كان يحتفـلُ بزواجِ ابنِه من فتاةٍ ضخمةٍ طيبة، من عـائلةِ التروف، جـاءَه مَنْ قالَ له إنَّ سيداً يحملُ أوسمةً يريدُ التحدثَ إليـه. ثم ظهر فوغاسُ بلباسِه الجميل.

قال له الطحان: سيدي العزيز. إن وقتي اليومَ لا يسمحُ لي بالكـلامِ عن الأعمالِ. فقـد بدأنـا منذُ قليـلٍ بشربِ النبيـذِ الأبيضِ، وسنشربُ الكثير من النبيذِ الأحمرِ مـعَ طعامِ العشـاءِ. نرجـو أن تبقى معنا وتشربَ قدرَ ما تريدُ فالمائدةُ كبيرةٌ وغنيةٌ. سنتكلمُ فيما بعدُ في الموضوعِ الذي جئتَ من أجلِه. أنا على يقـين بأنك لن ترفضَ دعوتي.

ـ «لم أخـطىء هذه المـرةَ، قال فـوغاسُ محـدثـاً نفسَه، هذا هو نداءُ الـطبيعةِ. كنت أفضـلُ أن يكونَ أبني رجـلاً عسكـريـاً، لكنّ هـذا المـزارع الـطيبَ يعجبُني، كما يعجبُني أحفادي».

كانت المائدةُ التي أُعِدَّتْ، تزخرُ بجميعِ أنواعِ اللحـوم. دُعي فوغـاسُ للجلوسِ إلى جانبِ عجوزٍ قصيرةٍ جرى التعـريفُ عنها بـأنها الجَدَّةُ. يـا الله! كم بَدَتْ له كليمانتين متغيرةً!

فكّر فوغاسُ:

«هكذا كنتُ سأبدو اليومَ لـو لم يَقُمْ جان مـايزر بتحنيطي».

ثم ابتسمَ وهو ينظرُ إلى الجَدِّ لانجيفين، رئيسِ هذه العائلةِ الكبيرةِ، قائلاً في نفسه:

«أيهـا العجـوزُ المسكـينُ، إنـك تجهـلُ مـالي بذمتِك»

جَـرَتِ العـادةُ في الـولائمِ الـريفيَّـةِ أن يتكلمَ الجميعُ بصوتٍ مرتفعٍ، وخاصةً في الأعراسِ.

قال فوغاسُ لجارته:

«كليمانتين»

رفعت العجـوزُ الصـمّاءُ عينيهـا الجميلتـين وأجابت:

- «نعم أيها السيدُ»

- لم يخدعني قلبي إذاً! أنتِ حبيبتي كليمانتين؟

- نعمْ أيها السيدُ

- هل عرفتني يا زوجتي العزيزةَ؟

- نعمْ أيها السيدُ.

- آه! لقـد عَرَفْتِ كيف تخفـين ذلك. فـالنسـاء قوياتٌ

- بالطبع يا سيدي

- شكراً! شكـراً! يا لها من عائلةٍ جميلةٍ حولَـكِ! وبيارُ، هذا الرجلُ الـطيبُ، استقبلني ببهجةٍ، عنـدما شاهدَني. إنه إبني، أليسَ كذلك؟

- نعمْ أيها السيدُ.

- إنـه ينعُم بالسعـادةِ؛ وأنا أحمـلُ له الثـروةَ! يا لَلْفرحةِ عندما أرفعُ صوتي عالياً لأقولَ له: إليـكَ هذه

الملايينَ! إنها لكَ! لكنْ . . هل حانَ الوقتُ! هل عليَّ أن أتكلمَ؟ هل عليَّ أن أقولَ كلَّ شيءٍ؟

ـ طبعاً، أيها السيدُ.

عندئذٍ وقفَ فوغاسُ وطلبَ السكوتَ. اعتقدوا أنه سيغنّي وسكتوا.

قال:

«أنا عائدٌ من العالمِ الآخَرِ يا بيارُ لانجيفين، وقد احضرْتُ لك مليونين» لم يشأْ بيارُ الضخمُ أن يغضبَ في حفلةِ الزواجِ، ولكنَّ لونَ وجههِ أصبحَ بلونِ الدمِ. وعندما قالَ فوغاسُ بأنه تعرَّفَ على الجدةِ في شبابِها، ضربَهُ الجَدُّ لانجيفين بالزجاجةِ على رأسه ونهضَ جميعُ أولادِ الطحّان، وأحفادُه، والعروسُ وتحوّلَ العرسُ إلى معركةٍ طاحنةٍ. وللمرةِ الأولى في حياتِه لم يشعرْ فوغاسُ أنه الأقوى، لأنه كان يخافُ أن يجرحَ أحدَ أفرادِ عائلته. فعاطفةُ الأبوّةِ كانت تكبّلُهُ.

لكنّه فهمَ وهو يتلقى الضرباتِ، أن كليمانتين

تدعي كاترين، وأن بيار لانجيفين وَلِدَ في سنة ١٨١٠. استعادَ عندئذ قوتَه، ففقأ ثلاثةَ عيون وكسَرَ أنفين، وأربعَ دزيناتٍ من الأسنانِ، ثم صَعَدَ إلى عربتِهِ وانطلق بعدَ أن تحقَّق له النصرُ.

وقال وهو ينطلقُ نحو محطةِ أفريكور:

لنْ أهتمَ بالأولادِ بعد الآنَ. إذا كان لي ابنٌ فليبحثْ عني!»

يطلُب يدَ كليمانتين، ويوافقُ على الطلبِ

في الساعةِ العاشرةِ من صباحِ الخامسِ من أيلولَ، بدا ليون رينو هزيلاً، منهكاً، وهو عند قدمي كليمانتين سامبوكو، في منزلِ عمتها. كانتِ الأزهارُ منتشرةً في كلِّ مكان، ونورُ الشمسِ المتسلّلُ من النوافذِ يغمرُ كلَّ شيءٍ. وكانَ التفاحُ يتساقطُ في الحديقةِ بينما بَدَتْ عناقيدُ العنبِ بلونِ الذهبِ والدمِ. لكنَّ ليونَ كان حزيناً. لقد أمضى ثلاثَ سنواتٍ في روسيا ليجمعَ ثروةً وعاد ليجدَ أن خطّيبته تفضلُ عليه عقيداً اشتراه بألفِ فرنكٍ وأعادَ إليه الحياةَ بنفسِه. إنه لا يستطيعُ القبولَ بهذا الأمرِ.

ـ إنني أكثرُ تعاسةً من أيِّ إنسانٍ يا كليمانتين! ماذا تريدينَ أن أصبحَ بدونِك؟ فحبي الكبيرُ لك يمنعُني من حبِّ فتاةٍ أخرى. فعليَّ إذاً أنْ أعيش، وحيداً. منذ أربعِ سنواتٍ وأنا لا أفكرُ إلا بكِ، ولا أعملُ إلا من أجلِك. كنتُ سعيداً! والآن! . . .

أجابَتْ كليمانتين وهي تجهشُ بدورِها، في البكاء:

إنني احبُك كثيراً، وأتمنى أن أضمَّك بين ذراعي. لكنني لم أعدْ كما كنتُ سابقاً، ولا استطيع أن أفعلَ ما أرغبُ بفعله. هناكَ أرادةٌ أخرى أقوى من إرادتي الضعيفةِ. وأنا أكنُّ لهذا الرجلِ، هذا العقيدِ، كلَّ إحترامٍ.

ـ تكنين له الاحترامَ! لماذا؟ أسألُك، باسم السماءِ، ماذا نستطيعُ أن نحترمَ فيه؟ تصرفَه؟ يبدأُ بالسكرِ منذ الساعةِ العاشرةِ. عمرَه؟ إنه أصغرُ سناً مني. وفاءَه؟ أنا أعلمُ تقديرَك له.

ـ لقد احترمتُه منذ وقعَ نظري عليه، إنه شعورٌ أقوى مني. ولا أجدُ تفسيراً له.

ـ أنا احبُّك يا كليمانتين! . بادليني الحبَّ!

في هذه اللحظةِ فتح فوغاسُ البابَ وهو يقول: «أيها القذرُ»

أطلقت كليمانتين صيحةً قويةً ونهض ليون بسرعةٍ لكن الكولونيلَ كان قد أمسك بسروالِه وسترتهِ من الخلف، ورفعَهُ بين يديه كريشة وقذفَ به وَسْطَ أزهارِ الحديقةِ قبلَ أن ينبتَ بكلمةٍ واحدةٍ.

نهضَ ليونُ بسرعة ونفض الترابَ عن ركبتيه وذراعيه وتقدّم نحو النافذةِ وقالَ بلهجة لطيفة:

«حبذا لو لم أُعِدْ إليك الحياةَ أيها العقيدُ. ولكنني سأحاول إعادتك إلى العالمِ الآخرِ. إلى اللقاءِ . . . وأنتِ يا، آنستي، إنني أحبُّكِ».

في هذا الوقتِ كان فوغاس يضم الفتاةَ بين ذراعيه، بينما كانتِ الآنسةُ فيرجينيا سومبوكو، التي تهبطُ درجَ الطابقِ الأعلى، تسمعُه يرددُّ هذه العبارات:

«يا معشوقةَ القلبِ، الكبير. عاد فوغاسُ إليك. لقد مضى عليه زمنٌ طويل وهو يطوفُ العالمَ ليستعيدَ رتبتَه وماله وعائلتَه وكلُّه شوقٌ ليضعها على قدميك. كان يهتدي بنجمِك بين باريس، وألمانيا. شوهِدَ عند جميع الملوك. صحيحٌ أنني لم أجدْ حبي الأولَّ ولا إبني، ولكن شيئاً لا ينقُصني. فأنت بديلٌ عن كلِّ شيء. ماذا ننتظِرُ؟ ألا تسمعين صوتَ السعادةِ الذي يناديك؟ فلنحتفلْ بزواجِنا ونقضِ العمرَ في أحضانِ السعادة».

أجابت كليمانتين:

لقد أطعتُكَ دائماً، يا سيدَ فوغاس، وأتعهدُ أيضاً بأن أكونَ مطيعةً لكَ طولَ حياتي. إذا كنتَ لا توافقُ على زواجي من المسكين ليون، فلن أتزوجَه. ولكنني، مع ذلك، أحبُّه. فكلمةٌ منه أحلى على قلبي من كلِّ الأشياءِ الجميلةِ التي حدثتني عنها».

صاحتِ العمّةُ:

«حسناً! حسناً جداً! إذن كليمانتين ليسَتْ لك، يا سيدَ فوغاس»

- «لماذا؟ الأنني جندي عجوزٌ؟»

- «لأنكَ ستحبها لمدة خمسة عشرَ يوماً، ثم تذهبُ إلى الحربِ كما فعلْتَ في زمنِ زوجتِكَ الأولى سنة ١٨١٣.

- أنصحُكِ بألّا تشفقي عليها! فبعد مضي ثلاثةِ أشهرٍ على سفري، تزوجَتْ من المدعوِ لانجيفين في نانسي»

- ماذا تقولُ؟

- قلت: إنها تزوجت من المدعو لانجيفين

- في نانسي؟

- نعم في نانسي

- هذا أمرٌ غريبٌ.

- إنه أمرٌ سيِّىء أيضاً.

- لكن ما اسمُ هذه المرأة.. هذه الفتاة؟

- كليمانتين. لقد قلت لك ذلك مئةَ مرةٍ.

- واسمُ عائلتِها؟

- كليمانتين بيشون

- آه! يا إلهي! مفاتيحي، أين مفاتيحي!. إنني متأكدةٌ أنني وضعتُها في جيبي. كليمانتين بيشون! السيد لانجيفين! هذا مستحيلٌ! أكادُ أفقدُ رشدي! تحركي يا ابنتي! إنها السعادةُ التي ستنعمين بها طولَ حياتِك! أينَ وضعتُ مفاتيحي؟ حسناً! ها هي!

إنحنى فوغاسُ على أُذُنِ كليمانتين وسألَها:

هل تحدثُ لها عادةً هذه الأعراضُ! من يراها يظنُّ أن المسكينةَ فقدَتْ رشدَها. لكنَّ العمةَ وجدَتْ في إحدى الخزائن المستندَ الذي كانت تبحثُ عنه وهتفت من الفرحِ: هذا ما كنتُ أبحثُ عنه! ماري كليمانتين بيشون، ابنة أوغست بيشون، صاحبُ فندق، شارع مارلات، في مدينة نانسي، متزوجةٌ في ١٠ حزيران ١٨١٩ من السيد جوزف لانجيفين. هل

هي نفسُها يا سيدي؟ هل تجسُر الآن على أنكار ذلك؟

«حسناً! لكنْ كيف حصلتِ على هذه المستنداتِ التي تخصني؟

ـ «لَكَمْ أسأتَ إلى هذه المرأةِ المسكينةِ التي اعتقدَتْ أنَّكَ مُتَّ. هل أدركْتَ ذلك الآن».

ـ «حسناً! حسناً! إنني أصفحُ عنها. أين هي؟ أريدُ أن أشاهدَها وأعانقَها وأقولَ لها. . .»

ـ «لقد ماتت، أيها السيدُ، بَعْدَ أن ولدَتْ لك ابنةً»

ـ «إبنةً لي! كنتُ أفضلُ أن يكونَ صبياً. لكنْ أين هي! أريدُ أن أراها وأعانقَها وأقولَ لها. . .»

ـ «لقد ماتَتْ، هي أيضاً»

ـ «هل كُنْتِ تعرفينها»؟

ـ «كيفَ لا وقد تزوجَتْ من أخي»

ـ «بدون موافقتي: أخيراً هل تركَتْ أولاداً»؟

ـ «ولداً واحداً فقط»

ـ «صبيٌّ؟ إنه حفيدي».

ـ «كلّا! إبنة»

ـ «إنها حفيدتي. كنتُ أفضّلُ صبياً. لكن أين هي؟ أريدُ أن أراها وأعانقَها و: »

ـ «عانقْها، يا سيدي. إنها تُدْعى كليمانتين كجَدّتِها. وها هي أمامَك.

ـ هِيَ! أدركتُ الآنَ سببَ الشبهِ بينهما إذاً أنا لا أستطيعُ الزواجَ منها! هذا غيرُ مهمٍ. تعالي إليَّ يا كليمانتين وعانقي جدَّكِ.

لم تُدْرك الفتاةُ المسكينةُ سوى شيءٍ واحدٍ وهو أنَّ فوغاسَ جَدُّها وأنها تستطيعُ أخيراً الزواجَ من ليونَ.

قالَتْ له:

«حقاً! يا سيدي! لقد أحببتُك واحترمتك دائماً كجَدّ».

- «وأنا، يا ابنتي المسكينةَ، كنتُ أتصرفُ دائماً كحيوانٍ هرمٍ. . لم أؤمنْ إطلاقاً بنداءِ الطبيعة. ولكنْ كلُّ شيءٍ انتهى على خير. أنتِ غنيةٌ يا كليمانتين، وستتزوجين من تُحبين. أينَ هذا الشابُ المسكينُ؟ أريدُ أن أراه وأعانقَه وأقولَ له. . »

- «لقد قذفته من النافذةِ، يا سيدي»

- «أنا؟ هذا صحيحٌ. لقد نسيت ذلك. لحسنِ الحظ أنه لم يُصَبْ بأذى. سأبحثُ عنه بسرعةٍ، وستحتفلانِ بالزواجِ متى شئتما؟ وسنحتفلُ بالزواجين معاً. لكن لا. ماذا أقولُ! لن أتزوجَ أبداً. إلى اللقاءِ، يا ولدي، يا حفيدتي وأنتِ أيتها العمّةُ الطيبةُ، يا آنسةَ سومبوكو، عانقيني!»

نزلَ السُّلَّمَ راكضاً، فظنَّ ليون، الذي كان يصعد السلمَ، أنه يبغي قتلَهُ فبادرَه بالضرب. لكنَّ العقيدَ استطاع تثبيتَ كتفيه على الأرض وقبّلَه على وجنتيه قائلاً:

«أيها الولدُ الشقيُّ! سأرغمُك على الاصغاءِ إلي. أنا جَدُّ كليمانتين وأوافقُ على زواجِك منها. بإمكانِكما الاحتفالُ بزواجِكما غداً، إذا شئتما. هل سمعْتَ؟ إنهض الآنَ وكفَّ عن ضربي. إنكَ تقومُ بما يشبهُ جريمةَ قَتلِ الوالدين.

مفاجأةٌ صاعقةٌ

أصبحتِ كليمانتين تتصرفُ كما تشاءُ مع فوغاس . تقبّل خده، أو تجلسُ على ركبتيهِ وتقول: يا أطيبَ جدٍّ، يا أجملَ جدٍّ صغيرٍ، يا جدي الطفلَ العجوزَ سنعيدُك إلى المدرسةِ إن لم تلتزمِ الهدوءَ!
كانَ العقيدُ يتكلمُ بصوتِه الأجشِّ وينفطِرُ حناناً ويبكي كطفلٍ .

إن الحنانَ حقٌّ طبيعي بين الجدِّ وحفيدتِه، لكن ليونَ رينو لم يكنْ سعيداً كما ظَنَّ البعضُ. كان بحاجةٍ لبعضِ الوقت لضبطِ عواطِفه والقبولِ بهذا الجدِّ الذي اشتراه بخمسمائةِ فرنكٍ، وكَسر أُذُنَهُ واشترى له مدفناً في مقبرةٍ فونتين بلو. وَجَدَ صعوبةً في احترامِ الرجلِ الذي كان تارةً سكيراً، وتارةً خفيفَ الظلِ وأحياناً شديدَ الخطورة. بدأ بالتصميمِ على الزواجِ

من كليمانتين، وانتهى بقذفه وَسْطَ الورود.

قالَتِ السيدةُ رينو لابنها:
كلُّ شيءٍ سيترتبُ. لن يمكثَ معنا طويلاً. إنه جنديٌّ، فهو لا يستطيعُ العيشَ خارجَ الجيشِ، اكثرَ مّما تستطيعُ السمكةُ العيشَ خارجَ الماءِ.

لكنها كانَتْ تشعرُ بمرارةٍ لا تقلُّ عما تشعرُ به غوتون، الطاهيةُ البدينةُ الطيبةُ التي قالتْ: «من أينَ جاءَنا هذا الجَدُّ المجرمُ»

أما بالنسبةِ لفوغاسَ، فإن الأمورَ كانت تسيرُ بشكلٍ طبيعي. لقد سامحَ نفسَه وغفرَ لها كلَّ ذنوبِها. كان لطيفاً مع الجميعِ وخاصةً مع صديقه ليون. وكان يردّدُ على مسمعِه: اختبرتُكَ، يا ولدي الحبيبَ، وَعرفتُك واحببتُك كثيراً. عليك أن تكونَ سعيداً، وستكونُ. وسترى أن المالَ الذي اشتريتني به لم يذهبْ سدىً. وإذا كانَ في فرنسا مَنْ يقدّرُ معنى العرفانِ بالجميل، فهو فوغاسُ.

قبل الاحتفالِ بالزواجِ بثلاثةِ أيامٍ، ذهبَ فوغاسُ إلى الكاتبِ العدلِ وطلبَ الإطلاعَ على ما يسمى «معاملاتُ الأسرةِ الجديدةِ». ما كادَ بصرُه يقعُ عليها حتى مزّقها وقال: «أرجوكَ أن تعيدَ تحريرَ هذه المعاملاتِ. فحفيدةُ فوغاسَ لا تستطيعُ أن تعيشَ على دخلٍ لا يتجاوزُ ثلاثينَ ألفَ فرنكٍ سنوياً. وبما أن كليمانتين وريثتي الوحيدةُ فأنا أهبُها مليوني فرنك. ها هما».

قال ذلك وأخرجَ من جيبِه حوالةً على مصرفِ برلينَ بقيمةِ مليوني فرنك، ثم أعطى الموظفَ ورقةً نقديةً بقيمةِ ألفِ فرنكٍ وهو يصيحُ بصوتِه الجهوري:

- «إليكَ هذا المبلغَ لتشربَ نخبَ الإمبراطورِ والجيشِ العظيمِ»

كان بودِ عائلةِ رينو أن ترفضَ هذه الهبةَ. ولكن كليمانتين نفسَها عجزت عن إقناعِ الجَدِّ العنيدِ بتغييرِ رأيه.

- «هل تريدينَ مني أن أتزوجَ مرةً ثانيةً؟ هل تسخرينَ مني؟ أتدرينَ لِمَ يتزوجُ الرجلُ؟ ليصبحَ أباً. وأنا أبٌ ولا ينقصني شيءٌ. فلي راتبي بالإضافةِ إلى المئتينِ وخمسينَ ألفَ فرنكٍ التي قبضتُها من ملكِ بروسيا. وهكذا ترينَ أنّني سأعيشُ أيامي الأخيرةَ في بحبوحةٍ تامةٍ».

وَصَلَتْ أخبارُ فوغاسَ وأقوالُه إلى جميعِ سكانِ المدينةِ وصار اسمهُ على كلِّ لِسانٍ، ورغبَ الجميعُ في حضورِ حفلةِ الزواجِ. وقد جاءَ المارشالُ، دوقُ سلفارينو، والأستاذُ كارل نيبور، من باريسَ، لهذه الغايةِ.

وبهذهِ المناسبةِ اشترى عمدةُ المدينةِ ثوباً جديداً. واصغى فوغاسُ إلى ما يقالُ في الكنيسةِ عن رحمةِ الله وذرفَ دموعاً حارةً. وقال وهو يخرجُ من الكنيسة: ننسى، أحياناً، الذين نحبُهم كثيراً.

كانتِ الوليمةُ رائعةً. كان من بينِ الحاضرين، السيِّدُ رولان، قائدُ الفوجِ الثالثِ والعشرينَ، والعقيدُ دي مارنه، قائد فوجِ المدرعاتِ والذي كان على وشك الشفاءِ من جراحِه. أما الدوقُ سلفارينو، الذي تصدّرَ المائدَة، فقد قال للسيدِ فوغاسَ، الذي أبدى استغرابَه، لتأخيرِ ترقيته إلى رتبةِ لواء:

ـ «سيرقيك الإمبراطورُ لهذه الرتبةِ. إنما هنالك بعضُ المستنداتِ الناقصةِ»

ـ «أرى أن ذهنيةَ الموظفين لم تتبدلْ. فدائماً هنالك نقصٌ في المستنداتِ»

ـ هوينك، أيّها الشابُ. أمامكَ الوقتُ الكافي للانتظار. فوضعُكَ يختلفُ تماماً عن وضعي. فلولا الحربُ الأخيرةُ لكنتُ أُحِلْتُ على التقاعدِ بسببِ بلوغِي سنِ الخامسةِ والستينَ. أما أنتَ فإنكَ لم تبلغْ

بعدُ الخامسةَ والعشرينَ، وقد وعدَ الإمبراطورُ أمامي بتعيينك لواءً.

أجاب فوغاسَ:

نعم، سأصلُ إلى هذهِ الرتبةِ، ولكنْ ليسَ لأنني أصغرُ سناً من جميعِ الضباطِ الذين برتبتي، أو لأنني اشتركْتُ في الحربِ الكبرى وسِرْتُ على خطى المعلِّم، بل لأنني محظوظٌ مثلَه. فأنا سأعيدُ تقسيمَ أوروبا. يعيشُ الإمبراطور! تعيشُ أوروبا! يعيشُ فوغاس!

في هذا الوقتِ بالذاتِ، دخلَ جنديٌ إلى غرفةِ الطعامِ وسأل عن العقيدِ فوغاسَ وسلّمهُ رسالةً من وزيرِ الحربيةِ.

قالَ المارشالُ:

«أهنئكَ. لقد أصبحْتَ لواءً، بكلِّ تأكيدٍ»

ـ «إقرأْ بنفسِك»، أجابَ فوغاسُ.

أخذ المارشالُ الرسالةَ، وقرأ:

سيدي العقيدَ.

وجدَ المسؤولون صعوبةً بترقيتِك إلى رتبةِ لواء.

فأنْتَ من مواليدِ ١٧٨٩، وقد صرْتَ الآنَ في السبعينَ من عمرِك. وبما أن السنَّ القانونيةَ للإحالةِ على التقاعدِ هي ستونُ سنةً لرتبةِ عقيدٍ، واثنتانِ وستون سنةً لرتبةِ لواءٍ، وخمسٌ وستونَ لرتبةِ القائدِ العام، لذلك أرى نفسي مرغماً على إحالتك على التقاعد.

إنني أعلَمُ، يا سيدي، أنكَ في الحقيقةِ صغيرُ السنِ وأن فرنسا بأشدِّ الحاجةِ لرجلٍ مثلك. لكنَّ القانونَ هو القانونُ، وحتى الإمبراطورُ نفسُه، لا يستطيعُ تغييرَه. وحتى لو أردْتَ العودةَ إلى الجيشِ كجندي عادي، فإن أيَّ فوجٍ لن يستطيعَ قبولَك.

ثِقْ يا سيدي..

سادَ القاعةَ سكونٌ عميقٌ: لا ضجةٌ ولا صوتٌ وكأنها نهايةُ العالمِ.

وبقي الجنديُ واقفاً ينتظرُ من فوغاسَ توقيعَ الإيصالِ بالاستلامِ.

قالَ فوغاسُ بلهجةٍ متبدلةٍ:

إنك تشعرُ بالسعادة، يا صديقي. إن أحداً لن يمنعك من خدمةِ بلادِك. حسناً أيها المارشالُ. ما رأيُك بهذا؟

ـ «ماذا تريدُ أن أقولَ، يا عزيزي! لقد حطّمني هذا النبأُ. ولكنْ ليسَ من مجالٍ للمناقشةِ مع القانونِ. أليست بلاهةً أننا لم نفكر بذلك سابقاً! ولكن من ينظرُ إليك لا يستطيعُ التفكيرَ بسن التقاعد».

واعترفَ الضابطان الآخرانِ بأنهما لم يفكرا إطلاقاً بهذه المسألةِ وأنهما عاجزان عن مساعدته إذ لا يستطيعُ أيٌّ منهما قبولَ تطوعِ فوغاسَ الذي بلغ قانوناً سنَّ السبعينَ حتى ولو كان يبدو في الرابعةِ والعشرينِ من عمرِه.

صاح فوغاسُ:

ـ إذاً، أحكموا علي بالاعدامِ. فأنا لا أستطيعُ الآنَ أن أتحولَ إلى بائعٍ أو مزارع. عليَّ أن أبقى جندياً أو أنْ أموتَ. ما العملُ؟ ماذا ينتظرُني؟ هل أتطوَّعُ في خدمةِ جيشٍ أجنبي؟ مستحيلٌ! يا الله! ماذا جَنَيْتُ لتُنْزِلَ بي هذا العقابَ»؟

قالَتْ له كليمانتين:

ـ ستبقى معنا وسنجد لك زوجةً جميلةً شابةً تهتمُ بتربيةِ أولادِك. وفي أوقاتِ فراغِك تكتبُ عن الأعمال العظيمةِ التي قُمْتَ بها، لا ينقُصك أيُّ شيءٍ من مقوِّماتِ السعادةِ. فعندَك الشبابُ والثروةُ والصحةُ والعائلةُ. فلماذا لا تكونُ سعيداً؟

أجابَ فوغاسُ وهو يبتسمُ بحزنٍ:

ـ إنني لا أشعرُ بالسعادةِ إلا مع المجازفةِ»

واستمرَّتِ الوليمةُ ولكنَّ فوغاسَ كان قليلَ

الكلامِ ونسي حتى أن يشربَ. كان يبدو كئيباً.

ـ «بماذا تفكِّرُ»؟ سألَه المارشالُ

ـ أفكّرُ بجميعِ رفاقِ السلاحِ الذين حالفهم الحظُّ واستشهدوا في ساحةِ المعركةِ. كان من الأفضلِ لي لو تركني هذا الألماني الأبله، أموتُ مجلّداً. إنه لم يؤدِ لي أيةَ خدمةٍ. على المرءِ أن يعيشَ في زمنِه. ألا ترى معي، يا لابلان، أن عبارةَ «فيما بعد» تعني «بعدَ فواتِ الأوانِ».

ـ «ما هذا التبدلُ يا فوغاسُ؟ أنت مخطىءُ. عندَك جميعُ أسبابِ الأملِ. غداً سأقابلُ الإمبراطورَ ونرى ونبحثُ. إنِ الوطَن بحاجةٍ لامثالِك من الرجالِ لاستكمالِ مسيرتِه والذين لا يجوز رميُهم في سلةِ المهملات».

ـ شكراً. أنتَ طيّبٌ وصديقٌ قديمٌ. كنا خمسمائة ألفٍ من هذه النوعية سنة ١٨١٢ وبسبب

ثلوج روسيا لم يبقَ منهم سوى اثنين، أو على الأصحّ
واحدٌ ونصفٌ.

حوالي الساعة العاشرةِ مساءً، رافق المرشالَ
إلى سكةِ الحديدِ، الضباطُ رولان ودي مارته بالإضافةِ
إلى فوغاسَ الذي عانقَ صديقَهُ ووعدَهُ أن ينتظرَ
بهدوءٍ. بعد ذهابِ القطار عادَ الثلاثة إلى المدينةِ
سيراً على الأقدامِ.

قالَ فوغاسُ للعقيد رولان:

«لقد عاوَدَني العطشُ ونحنُ نسيرُ في الهواءِ
الطلقِ. هل لي بكأسٍ صغيرة من مشروبِك؟»

- بكل سرور. إنكْ لم تتناولْ تقريباً، أيَّ
مشروبٍ على المائدةِ. فلنصعدْ إلى المنزلِ».

لم يكد فوغاسُ يبدأ بتناوُلِ الشرابِ حتى توقّف
بعضَ الوقتِ بالقربِ من العَلَمِ وأحصى الفجواتِ
التي أَحْدَثَتْها الرصاصاتُ في نسيجهِ ثم قال:

«لا جدوى من هذا الشرابِ، بالنسبةِ لي. فأنا
لَسْتُ في حالٍ طَبيعيَّةٍ اليومَ تصبحون بخير، أيها
السادةُ».

حوالي الساعة الحاديةَ عشْرَةَ من صباحِ اليوم
التالي، وبينما كان ليون يحلق ذقنَهُ وهو في منتهى
السعادةِ، سلّمَهُ أحدُهم برقيةً. فضّها دونَ أن يلاحظَ
أنها ليسَتْ موجهةً إليه وأطلق صَرْخَةَ فرحٍ بعد أن قرأ
فيها ما يلي:

إلى السيد العقيدِ فوغاس - فونتين بلو
صَدَرَ عن مكتبِ الإمبراطورِ قانونٌ جديدٌ.
ستصبحُ لواءً. لا بلان.

أسرعَ ليون إلى فندقِ «الميناء الأزرق» وصعدَ
إلى غرفةِ العقيدِ فوجده ميتاً في فراشِه.

استلمَ السيد بونيفه بواسطة البريد وصيةَ
العقيدِ - الجنرال الأخيرة وفيها:

أهبُ قلبي لفرنسا، ومثالي إلى الجيشِ وحقدي الذي لم يتبدلْ لانكلترا وما أملكُ من ذهبٍ لغـوتون، ومئتين وخمسينَ ألفَ فرنكٍ للفوجِ الثالثِ والعشرين. يعيشُ الإمبراطور.

فوغاس

إن السيدَ فوغـاس، الذي أعيـدَ إلى الحياةِ بـين الساعةِ الثالثةِ والرابعةِ والنصفِ من بعدِ ظهرِ السـابعَ عشَر من آب، ماتَ في السابعَ عشرَ من الشهرِ التالي.



قصص عالمية

الرجل ذو الأذن الممزّقة